المقدمة

..قد قيل : **(لا يضيع حق وراءه مطالب)**

واليوم نقول : **أطفال فلسطين هم قدرالله ، وقدر الله غالب ..**

فهم المرشحون لانتزاع حق الأمة وشرفها المسلوب من براثن المعتدي الغاصب .. ألا تراهم وقد راحوا بثباتهم ورباطهم يكسون أمتهم بجميل الخصال والمناقب ، ويمحون عنها ما لصق بها إثر قصورها و تقصيرها من مثالب .

فرباطة جأشهم ، واعتصامهم بحبل ربهم ، أرسى لهم لسان صدق في الآخِرين ، سيؤتي أكله بإذن ربه ولو بعد حين ..

فهم لم يفرّطوا بقدسهم و مقدساتهم ، بل صانوها بدمائهم وأشلائهم ، يبغون بذا بيض الصحائف ، وصدق المواقف،إنْ في الحياة الدنيا أو يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

لذا حقيق علينا أن نتقدم بباقات رَوْح وريحان ، مزدانة بآي القرآن ، تبعث في النفس الأمن والأمان ، مسداة إلى جيل زرعته يد الرحمن ، فهيهات هيهات أن تحصده يد إنسان ، أو تقتلعه من أرضه عربدة الطغيان .

صبرا أهل فلسطين لا نملك إلا أن نقول لكم :

(سلام عليكم في العالمين)

صبر المجاهدين

لئن كانت شرعتنا الحنيفة أوصت عموم المؤمنين ، بامتثال قيمة الصبر ، والتحلي به فيما حزبهم من أمور؛ كالصبر على المأمور والمحذور والمقدور ، فإنها اختصت جحافل المجاهدين بأحوال من الصبر المستبين ، فكان أن أوصتهم بالصبر : قبل نشوب المعركة واحتدام الصراع ، وبالصبر في خضم النزال والقراع، وبالصبر عقب جولة جهادية صار غبارها الى انقشاع .

فهذه أحوال ومقامات من الصبر ينعقد بنواصيها حكم بالغة نيرة ، وثمرات
طيبة خيرة . أما الصبر قبل نشوب المعركة فأثبتته قوله تعالى لسيد المجاهدين صلى الله عليه وآله وصحبه أجمعين ، بنص قرآني مبين . (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم). [سورة الأحقاف آية35]

فالوصية بالصبر في هذه الآية الكريمة حملت للمجاهدين بين طيّاتها لمسة تربوية بارعة ، مؤداها أنها تضبط مشاعرهم ، وتهذب عواطفهم ، وتمحص مواقفهم ، وتصفي نواياهم وطواياهم وسرائرهم ؛ فصولاتهم وجولاتهم الجهادية لاتتأتى من باب ردود الأفعال ، إنما من جهة إرضاء الكبير المتعال ، فهي ليست رهينة حظوظ النفس ، إنما من الظلام تقتص ، تلقنهم ومن شايعهم ومشى ممشاهم أعظم درس ، فدماؤها وأرواحها في سبيل الله ترخص ، إعلاء لراية التوحيد ، وتخضيدا لشوكة الشرك العنيد .

واذكر للدعاة في فلسطين حقبة زمنية ، انحازوا فيها إلى تربية النشئ على التوحيد وصبغتهم بصبغة الكتاب والسنة ، فكان أن تطاولت عليهم الألسنة ، فانبرى فريق يزاود عليهم ، وراح يتمطى أن شهر في وجه يهود الأسنة ، مروجين أن الدعاة بصنيعهم هذا إنما تثاقلوا عن دروب الجهاد والاستشهاد ، ونأوا بأنفسهم عن نصرة العباد ، وتخاذلوا عن تحرير البلاد ...!!

فما لبثت هذه الأصوات أن خمدت ، حينما أتى على الناس زمان تناحر فيه حملة السلاح ، وأثخنوا فيما بينهم الجراح ، فتبين حينها أن العقيدة هي التي توحد السواعد وليست البندقية ، وثبت أنه ليست القضية الهرولة إلى حمل البندقية ، إنما هي النفوس الأبية التقية ، التي ينبغي صناعتها وإشباعها بالمبادئ النقية ، وإفعامها بالقيم القوية ، لتغدو لدماء شهدائها وفية ، ويظل شعارها المنية لا الدنية ، فمهما ادلهمت الخطوب ، ونزلت في ساحتها الكروب ، فنجم مبادئها وقيمها وثوابتها لن يسير إلى أفول وغروب .. وهذا ما كان للجيل المجاهد في فلسطين .

وأما الصبر في خضم المعركة فبينه قوله تعالى

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) [سورة آل عمران آية 200]

وقوله **(ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين)** [سورة الأنفال الآيتان45، 46] .

فما حملته هذه الآيات الكريمة بين ثناياها من دعوة المجاهدين إلى التجلد وتجشم المشاق ، واستعذاب المنايا في سبيل الملك الخلاق ، وطلبها من مظانها بلا وجل ولا إشفاق ، من شأنه أن يفرج كربتهم ، وينهي –بإذن الله – غربتهم ، في حين يخضد لأهل الزيغ والفساد شوكتهم ، وقد قدمت غزوة حنين للبشرية في هذا الصدد أسمى عظة ، صاغتها ثلة مجاهدة بصبر لحظة.

من هنا : فعلى المجاهدين في فلسطين في أتون معركتهم المقدسة التي يذودون فيها عن حياض الأمة ومقدساتها وحرماتها .. عليهم ألا يقيلوا ولا يستقيلوا عن درب قدموا فيه من الدماء والأشلاء ما يعد ضريبة لا يستخف بها ولا يستهان على طريق نيل الحرية وتحقيق الاستقلال .

وعليهم أن يتفطنوا دوما أن كوكبة الشهداء الذين قضوا نحبهم وجادوا من قبل ومن بعد بأرواحهم إنما شيدوا منار هدى يهتدي به الحيارى ، فلا يليق بالجموع التي أتت بعدهم إلا أن تحذو حذوهم ، وتواصل زحفهم ، دونما أن تحيد أو تتمارى .. نعوذ بالله من الحور بعد الكور .

وأشد أحوال الصبر ومقاماته لدى المجاهدين : الصبر عقب المعركة ؛ إثر انقشاع جولة ، والفراغ من صولة، كشف ذلك قوله تعالى : **(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم)**[سورة محمد آية 31]، فأخر الصبر عن الجهاد لأن المقصود بالمجاهدين هنا : المقيمون عليه ، وبالصابرين : الثابتون عليه – على الجهاد – ، ولأوائه دونما انخزال أو انخذال .

ذلك أن غبار المعركة سوف ينجلي عن دماء تنزف ، وأشلاء تتناثر ، وأرواح تزهق ، من فلذات الأكباد ، وقادة الجهاد ، وصناع الاستشهاد ، فضلا عما تخلفه وراءها من نساء ثكالى ، وأطفال يتامى ، وأبنية تتهاوى ، ومقدرات وثروات وخيرات ومزروعات ترى العدو بإتلافها يتغاوى ..!!

فهذا كله يتطلب من المجاهدين ومن آزرهم ، ومن أهل فلسطين ومن ساندهم ، استنفار جهود كثيفة ، واستفراغ طاقات حثيثة ، بغية تضميد الجرح ، وبلسمة القرح، لكيلا يتوانى أحد عن الزحف نحو التحرير ، وانتزاع حق الحرية وتقرير المصير .

ومتطلبات هذه المرحلة تنوء بالعصبة أولي القوة ، إلا من رحم ربك ، فبث فيه العزيمة والهمة .

لذا تجد القرآن الكريم قد أعلى من شأن رواد هذه المرحلة ، وأولاهم عناية فائقة ، وتوجيهات سامقة ، ففي مثل هذه المرحلة وما شاكلها نزل قوله تعالى " **من المؤمنينَ رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** [سورة الأحزاب آية 23] .

ذلك أن التبديل والتغيير إنما يزينة المرجفون شياطين الإنس والجن أجمعون حينما يثخن الجسد بالجراح ، وتتناثر الأشلاء في الساح ، وتسيل بالدم البطاح .. عندها تتكثف جهودهم المذمومة ، وتتنشط مساعيهم المحمومة ، وتتعالى صيحاتهم المسمومة ، لغزو النفوس بسوء الظنون ، واحرّقلباه !! فلهم في ذلك دروب وفنون .

خيار المجاهدين

بينما البشرية في بحر من الشقوة لجيّ تتلاطمها الأمواج، مشتتة جموعها تنشد النجاة والخلاص في كل السبل والفجاج، فليس أمامها سوى خيار خلاص واحد في خضم هذا الليل الدّاج ... تماماً كخيار سفينة أهل التوحيد، التي كانت الملاذ الآمن الوحيد، عندما حقت كلمة العذاب على المشركين الصناديد.. تلكم السفينة التي ابتدئت صناعتها زمن نوح –عليه السلام– حينما طرأ الشرك على العبيد، وطغى على أنصار التوحيد، فباتت سفينة نوح هي خيار النجاة المطروح، كذا قضى ربنا الفعّال لما يريد **(فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا)** [سورة المؤمنون27]وكان خياراً غريباً على من سلبوا عمق الفكرة وبعد النظر، لدرجة أنه أثار هزأهم وسخريتهم من نبي هو بين أهل زمانه خير البشر**(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه)** [سورة هود 38]فلسان حالهم يقول: يا نوح إن السفينة لا تجري على اليبس.. لكن ذلك لم يكن ليفتّ في عضده؛ لأن خياره هذا الذي انحاز إليه كان بعناية من الله تعالى ووحي من عنده، فبما أنّ خيار النجاة الذي تشبث به نوح ينبثق من وحي الله، وتكلؤه عناية الله، فعليه أن لا يعبأ و لا يلقي بالاً لكيد وسخرية وهزء من عاداه، ممن بدا لهم لقصر نظرهم، وفرط جهلهم، وانتكاس فطرهم، أن خيار نوح –عليه السلام– لايتمشى مع تحديات الواقع، وعليه: فلن يرفع عن نوح ومن آزره شيئاً من الاضطهاد الواقع..

وشرع نوح –عليه السلام– يدعو الناس للانحياز للخيار الرباني الذي آمن به وانخرط في سلكه فرفع شعار **(يابنيَ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)** [سورة هود 42]وظلّ هذا الشعار يُصدع به بين أظهر المسلمين وأعقابهم على مر السنين، في كل مرة ينحازون فيها لخيار رب العالمين ، بغية الانفكاك من الظلم والانعتاق من قبضة الظالمين.. لكن من أخذته العزة بالإثم ، ولم يميز بين الغُنْم والغُرْم ، ما كان حجته إلا أن قال **(قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء)** [سورة هود43] كفرانا بخيار نوح –عليه السلام– بعدما عميت بصائرهم لما اجترحوه من آثام، وتجريداً للأحداث عما يقف وراءها من قوة عزيز مقتدر لا يضام.. ونسي القوم أو تناسوا أن الله عز وجل هو الذي يقلب الدهر ، ويصرّف الزمان، ويدبر العقبى والمآل، وأنه سبحانه ما بين غمضة عين وانتباهتها يغير من حال إلى حال..

فما لبثت أن دارت عجلة الزمان، فعمّ الأرض طوفان **(وفجرنا الأرض عيونا)**[سورة القمر12] ليرى الجميع رأي العين أن خيار نوح عليه السلام– هو خيار النجاة الوحيد الأكيد، وما ذاك إلا لأنه خيار جرت به المقادير **(فالتقى الماء على أمر قد قُدر)** [سورة القمر12].

وأهل فلسطين تراهم اليوم وقد انحازوا إلى خيار رباني أذن به رب العباد، ألا وهو خيار الجهاد والاستشهاد **(إنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله)** [سورة التوبة41]، **(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان والذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك نصيرا)** [سورة النساء75]، **(وأقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم)** [سورة البقرة191]، في حين شرع المرجفون يشككون بهذا الخيار ويمكرون ضدّه وضدّ أنصاره إن في ليل أو نهار، بذريعتهم المزعومة وحجتهم الموهومة أن لا مكان لخيار مثل هذا في ظل واقع مشحون بالتحالفات الدولية، والقوى الإقليمية، والتصنيفات الإرهابية ،غير موقنين انه خيار جرت به المقادير، فقد قال البشير النذير (الجهاد ماض منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال، لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل)[خرجه أبو داود في سننه والهيثمي في المجمع] ،وقال عليه الصلاة والسلام(لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون)[أخرجه الشيخان].

ومن هنا ! فإن عجلة الزمان ستدور، ليغدو واضحا للعيان أن هذا الخيار به سيسطع النور ، ويزاح عن الأمة الديجور.. فكما أن خيار السفينة كان حكم الله تعالى في زمن نوح عليه السلام – لتغيير الواقع، فإن خيار الجهاد والاستشهاد هو حكم الله تعالى لأهل فلسطين بخاصة ولجموع المسلمين بعامة ، حكم ماله من دافع... وكما أن خيار السفينة كان محروساً من المولى تبارك وتعالى) – **تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفورا)** [سورة القمر 14] فكذا خيار الجهاد والاستشهاد الذي هو حكم الله تعالى سيظل ومن آوى إليه محل العناية والكلاءة من الله عز وجل**)واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا](** سورة الطور48] ولا يخفى ما في الصبر من معنى الثبات على هذا الخيار، إلى أن تحين كلمة الواحد القهار ، التي فصلّها قوله تعالى**) ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم**

المنصورون ، وأن جندنا لهم الغالبون] (سورةالصافات171-173] مؤذنة بنصر مؤزر للمؤمنين، وبمنقلب شؤم للمغتصبين، ومن شايعهم وناصرهم ووالاهم من الظالمين..

وبعد: فكل من حاد عن هذا الخيار وناوأه محارباً بذا النواميس والأقدار، فعاقبته حتماً إلى بوار، وكيانه يقينا إلى انهيار، كقوم نوح لما حادوا عما رسمه الله لهم من خيار، فكان أن لاحقهم الطوفان، ولفتهم أزمنة النسيان، فألبسوا لبوس الخيبة والخذلان، وباءوا بالفشل والخسران...ولم يحظوا بوقفة ندبة ورثاء، من ذي العزة والكبرياء، فلم يَعْدُ الخطاب الإعلامي الرباني في التعقيب على عاقبتهم كلمات معدودات،) وقيل بعداً للقوم الظالمين] (سورة هود44] ذلك أنها هانت على ربها لما حادت عن الخيار الذي ارتضاه لها، فلم يستحقوا من المولى وقفة يطول وقتها ..وتأمل كلمة) وقيل (فلم يقل سبحانه (قلنا)بضمير العظمة الموحي أن الله تعالى هو المعقب على ما ألـمَّ بالقوم من عاقبة شؤم، إنما هو لفظ) وقيل (المشعر أن التعقيب قد يكون جرى على السنة ملائكة مقربين، أو ثلة من عباد الله المؤمنين، أو في غضون حديث يتفكه به لدى الأولين والآخرين، إذا ما جنحوا للحديث عن مصارع القوم الغابرين..

فالله الله يا أهل فلسطين.. الزموا خيار ربكم – خياراً فيه الثبات و الرباط – واستمسكوا به رغم الجروح ، فهو مكمن هداية، وتشبثوا به كما تشبث به من قبل نبي الله نوح، فصار للناس آية،) فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين] (سورة العنكبوت15] وهكذا سيظل الخيار الرباني أنموذجا يحتذى، وموقفا يتأسى به ويقتدى.. على امتداد الزمان وطول المدى ..ومن حاد عنه غشيته الشقوة وطواه الردى ..

صفقة المجاهدين في فلس ين

الصراع بين الحق والباطل قديم قدم هذا الدين ، فمن لدن آدم عليه السلام مرورا بنبي الله نوح عليه السلام ، وامتدادا إلى نبينا محمد r وصولا إلى واقعنا المعاصر ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها والصراع محتدم بين أهل التوحيد وأنصار الشرك العنيد .

ومن نظر إلى هذا الصراع بعين البصر والبصيرة على السواء استشف أن المعركة في حقيقتها بين أهل الشرك والكفر والإلحاد وبين الله رب العباد ؛ تأمل في ذلك قول الحق تبارك وتعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) [سورة الممتحنة 1]، فقدم عداوتهم لله على عداوتهم للمؤمنين لأن عداوتهم لله أصل وعداوتهم للمؤمنين تبع ؛ فقد أُقحم المؤمنون في دائرة العداء هذه بسبب إيمانهم بالله تعالى ، وحسبك جملة من الآيات القرآنية تؤكد هذه الحقيقة ، فقد قال جل شأنه في شأن أصحاب الأخدود (قتل أصحاب الأخدود ،النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) [سورة البروج4-8] وها هو فرعون يتوعد موسى بقوله (قال لإن اتخذت الهاً غيري لأجعلنك من المسجونين) [سورة الشعراء29] وقوم شعيب يقولون له (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) [سورة الأعراف 88] وقوم لوط يلوحون لنبيهم (لأن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين)(لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين) [سورة الشعراء 167] وقوم نوح يهددون (لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين) [سورة الشعراء 116] ، وصناديد قريش تخرج محمدا r وصحبه للعلة ذاتها (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)[سورة الحج 39] فكلمة ربنا الله بدل أن تكون موجبا للإكرام، أضحت عند الكفرة اللئام موجبا للنفي والتشريد والتنكيل والإبعاد على مر الليالي والأيام. وعموما فمقايضة وقف أعمال البطش والتنكيل والإبعاد بعودة الموحدين إلى ملة الكفر مسلك سلكه كل الطغاة (وقال الذين كفروا لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا)[سورةإبراهيم13]، وهكذا تنوعت أساليب البطش والتنكيل من نقمة وسجن ورجم ونفي وإبعاد والسبب واحد (أن يقولوا ربنا الله) الأمر الذي يعطي دلالة واضحة على عقدية المعركة وأن العداوة بينهم وبين الله تعالى ابتداءً ، وإلا فلو شاركهم المؤمنون كفرهم بالله لانقطع دابر العداوة (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) [سورة البقرة 217] . فإذا كان ذلك كذلك وأن العداوة بينهم وبين الله تعالى ابتداء وإنما زُج بالمؤمنين في أتون هذه المعركة بسبب إيمانهم بالله ، واتباعهم شرعه وهداه ،فهذا يقدح في الذهن سؤالا مفاده :

أن الله تعالى لا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض فلماذا لا يبادر بالانتصار لنفسه من القوم الكافرين فيعجل باستئصال شأفتهم وكسر شوكتهم ؟ ليطلع علينا الجواب من قوله تعالى **(ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض)**[سورة محمد 4] فمن اللطائف القرآنية أن هذا الجواب جاء في سورة محمد التي اشتهرت بسورة القتال ليفيد : أن رحمة الله تعالى بعباده المؤمنين ، وإكرامه لهم على مر السنين ، أنه لم يعجل باستئصال شأفة القوم الكافرين ، وذلك **(ليبلوا بعضكم ببعض)** أي ليفتح لعباده المؤمنين سوقا تجاريا يتاجرون فيه مع الله عز وجل عبر مجالدتهم لعدوه وعدوهم ، ومقارعتهم إياهم في ميادين الفدى وساحات الوغى ، لتسمو بذا عند الله تعالى مقاماتهم وتعلو درجاتهم ... والا فالمولى جل شأنه ليس بمعزل عن الصراع ، بل هو بالقوم المعتدين بصير ، وعما قريب ليوردنهم سوء المنقلب والمصير ، قال تعالى **(وجعلنا بعضكم لبعض أتصبرون وكان ربك بصيراً)** [سورة الفرقان 20] فبعد أن بين أن هذا الابتلاء من باب تمحيص صبر المؤمنين عقب بقوله **(وكان ربك بصيراً)**إيحاء بأنه يرقب الصراع ويضرب على عباده المؤمنين المجاهدين في خضمه عنايته وكلاءته وحمايته ، ولما كان جل شأنه بالصراع بصيراً فان له فيه تدبير تجري به المقادير ، وتأمل في هذا قوله جل شأنه **(ويمكرون ويمكر الله واللهُ خيرُ الماكرين)**[سورة الأنفال30]، وقوله **(وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم)** [سورة إبراهيم 46]، وقوله **(ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون)**[سورة النمل50] وقوله : **(إنهم يكيدون كيدا ، وأكيد كيداً)** [سورة الطارق 16، 15] .

فهي التجارة إذاً يتاجر فيها المسلمون مع الله تعالى ، وقد بين الكبير المتعال حقيقة هذه التجارة وما تتطلبه من رأس مال فقال :**(يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم)** [سورة الصف10] ابتدأ الحديث عن التجارة بتوجيه الخطاب إلى المؤمنين ، فهم المرشحون لهذه التجارة دون غيرهم ذلك أن ميزة هذه التجارة أنها تنجي الأمة من عذاب أليم ، فهل يتحفظ على هذه التجارة من كان عنده مسكة من عقل في وقت مس الأمة فيه العذاب الأليم ، في حين يتخاذل عنها غير المؤمنين ، أو من خلت قلوبهم من اليقين... ورأس مال هذه التجارة إيمان بالله ورسوله **(تؤمنون بالله ورسوله)** [سورة الصف11] ، أما كنهها **(وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)** [سورة الصف11] ، وطالما لفت النبي صلى الله عليه وسلم النظر إلى هذه التجارة ورأس مالها المطلوب فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل؟ قال :(إيمان بالله وجهاد في سبيله) [متفق عليه] وقال عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالجهاد في سبيل الله فإنه باب من أبواب الجنة يذهب الله به الهم والغم) [مجمع الزوائد 497/5] إشارة إلى تخليصه للأمة من كل عذاب أليم يمسها.

فإذا ما انخرط المؤمنون في سلك الجندية بجيش رب البرية فليهنأوا إذاً ولتشرئب أعناقهم لمعركةٍ الله بصير بها ، وهو بمعيته وتسديده يديرها **(إذ يوحي ربك للملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا)**[سورة الأنفال12] ، وما دور المسلمين فيها إلا أنهم يغدون ستارا لقدرة الله عز وجل توقع في الأعداء وتنال منهم دونما ملل أو كلل ، ولا وهن أو وجل، وقد أكد المولى لهم ذلك بقوله : **(وما رميت إذ رميت ولكن الله رما)** [سورة الأنفال 17]، فلئن كان رمي المجاهدين رمي إيجاد للفعل فرمي المولى عز وجل رمي تسديد في نحور العدو ، وقال تعالى **(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)** [سورة التوبة 14]، فالذي يذيقهم العذاب هو رب الأرباب ، يجريه على أيدي المؤمنين المجاهدين تكرمة لهم بتعاطيهم الأسباب ، ألا فاعتبروا يا أولي الألباب ... فإذا كان ذلك كذلك فاعلم أن أعظم عقوبة عاقب بها الشارع الحكيم الذين في قلوبهم مرض والمرجفين :حرمانهم من الانخراط في صفوف المجاهدين كأولئك الذين حرمهم الله بسبب تخاذلهم وتثاقلهم وإرجافهم **(فإن رجعك الله الى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين)** [سورة التوبة 83]، فلم يوح عز وجل لنبيه بأن يجعلهم في مقدمة الجيش وطليعة المعركة ليكونوا وقودا لمعركة التوحيد فذا شرف رفيع لم ولن يبلغوه ، إنما كان جزاؤهم

(فاقعدوا مع الخالفين) وأثبتت زلتهم في الكتاب المبين، ليفتضح أمرهم الى يوم الدين

وفي ذلك عبرة للمعتبرين، وفي هذا الصدد هنيئا لأهل فلسطين إذ اجتباهم رب العالمين ،وخصهم بإبرام صفقة معه لمقارعة يهود الأذلين ، ذوداً عن مقدسات الإسلام وحمى المسلمين.

بيعة المجاهدين في فلسـ ين

أما وقد علم آنفا أن المعركة إنما تدور رحاها بين جنود مؤمنة الله اصطفاها، وبعنايته قد رعاها، وبصفقة تجارية خصها وحباها ، وبين جموع محتشدة الكفر آواها ، ومردة الإنس والجن تحمل لواها .. بات لزاما علينا أن نقف على حيثيات هذه الصفقة وشرائطها ، وحال من ارتضاها ، ومآل من أمضاها إلى منتهاها ، عندها سنجد كتاب الله تعالى قد سطرها لنا تسطيرا وحبرها تحبيرا فقال عز من قائل : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) [سورة التوبة 111]،فالمشتري هو الله تعالى وقد أشرف على هذه الصفقة بنفسه ، لم يكلها لأحد من خلقه وكفى بذلك فخرا مبينا ، وقوله (من المؤمنين) دل على حصرها فيهم وقصرها عليهم وحرمان من سواهم ، والمشترَى هو النفس والمال ، والثمن:الجنة وأعظم بها من سلعة غالية (ألا إن سلعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة) [السلسلة الصحيحة للألباني 2335]، لذا قال قتادة رضي الله عنه (ثامنهم فأغلى ثمنهم إذ جعل ثمنهم الجنة) [تفسير ابن كثير 218/4]، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه فانه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده وفي ذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: (اشترى أنفسا خلقها وأموالا رزقها) [الرازي 204/8] وقال : (اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة) [الرازي 204/8]، ويلحظ هنا أن الحق تبارك وتعالى قد قدّم النفس على المال على خلاف ماجرت عليه آيات الجهاد من تقديم المال على النفس كما في قوله تعالى : (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)﴾[سورة الصف11]، وقوله : (إنفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله)[سورة التوبة 41] ، وقوله : (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة) [سورة التوبة 20] ، ففي كل قدم المال على النفس ذلك أن المال شقيق الروح فإذا هان المال هانت الروح إلا في هذا المقام مقام عقد صفقة وإبرام بيعة مع الله تعالى قدم النفس على المال ؛ لأن الأنفس هي المشتراة في الحقيقة ، وهي مورد العقد وهي السلعة التي استامها ربها وطلب شراءها لنفسه في حين المال تبع لها فإذا ملكها مشتريها ملك مالها ومتعلقاتها ، كما وأنه في هذا المقام ليست الأموال ولا الأولاد هي التي تقربنا إلى الله زلفى (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً)[سورة سبأ 37] ، إنما طهارة النفس ورفعتها وما قام بها من إيمان هو الذي يؤهلها لأن تكون محطا لاجتباء الله تعالى لاسيما وأن القتل في سبيل الله – الذي هو مضمون الصفقة – إنما هو اصطفاء منه سبحانه (ويتخذ منكم شهداء)[سورة آل عمران 140] ، وزكاة النفس سبيل لذلك (قد أفلح من زكاها) [سورة الشمس9] ، أما قوله : (بأن لهم الجنة) فيفيد أنه بيع سلم مؤجل في الذمة ولن يخفر الله تعالى من ذمته من شيء حتى إذا ما تساءل المرء عن طريق إمضاء الصفقة وإنجاز البيعة بينت له تتمة الآيات السبيل (يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويقتلون) فتفجير الصراع مع أعداء الله تعالى وإعلان النفير هو بداية المسير على طريق إنجاز البيعة وإمضاءها ، أما قوله تعالى : (فيَقتلون ويقتلون) فقد قرأ حمزة والكسائي بتقديم المفعول على الفاعل وهو كونهم مقتولين على كونهم قاتلين ، وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول ؛ فعلى قراءة تقديم الفاعل على المفعول (فيَقتلون ويقتلون) يكون المعنى : أن هؤلاء المجاهدين الذين شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله يُعملون أسنتهم في نحور العدى ، ولا يبرحون ساحات الفدى حتى يخروا في أرض المعركة شهداء بررة، فهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنهم حتى يصيروا مقتولين ، وعلى قراءة تقديم المفعول (فيُقتَلون ويقتُلون) يكون المعنى: إنهم وإن استشهد فريق منهم في غضون صولة،فإن ذلك لا يثني الباقين عن مواصلة الجولة حتى يأخذوا بالثأر، فكما أن فريقا منهم يُقتلون فالباقون يسيرون على الأثر، دونما تذمر ولا ضجر، ولا تسخط وتبرم على ما أتى به القدر، إنما يتابعون الكر والفر اقتصاصا ممن أخرجهم من صياصيهم للفساد والاعتداء الأشر والبطر .

فإذا ما انجلى غبار المعركة عن شهداء بدمائهم مضرجين، فقد ربح البيع وحصل التقابض هناك في عليين ، بجوار رب العالمين، ففي هذا يقول المصطفى : (واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) [متفق عليه] .

ثم استطردت آيات الكتاب في توكيد هذه الصفقة بين المؤمنين المجاهدين وبين رب العالمين فقالت (وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ، ففي الآية عشر توكيدات على إمضاء البيعة وإنجازها ، مفصحة أنه ما أن تنساب من الدماء الطاهرة دفقة ، حتى تتجز البيعة فيرتفع أصحابها إلى جنات الفردوس حيث حسن الصحبة والرفقة (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا)[سورة النساء 69] ، وتفصيل هذه التوكيدات على النحو التالي (أنظر تفسير الرازي 207/8) :

التوكيد الأول في قوله تعالى : (إن الله اشترى) فالمشتري هو الله تعالى المقدس عن الكذب والخيانة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ، الثاني : أنه عبر عن إيصال هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ، وثالثها : قوله (وعداً) والله لا يخلف وعده ، ورابعها : قوله (عليهِ)وهي تفيد الوجوب، وخامسها : قوله (حقاً) وهو التأكيد

للتحقيق ، وسادسها : قوله (في التوراة والإنجيل والقرآن) وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبايعة ، وسابعها قوله : (ومن أوفى بعهده من الله) وذلك غاية في التوكيد ، وثامنها : قوله (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به)وهو مبالغة للتأكيد لأن البشارة تكون لأمر تلوح بوادر وقوعه ، وتاسعها : قوله (وذلك هو الفوز العظيم)والفوز لابد أن يرى أمره ويظهر أثره ، وعاشرها : قوله (العظيم) والشيء العظيم لا يواريه تعاقب الليل والنهار ، إنما سيبدو جليا شاخصا للأبصار . فثبت اشتمال هذه الآية على الوجوه العشرة للتأكيد والتقرير والتحقيق ، فما على أهل فلسطين بعد ذلك إلا مواصلة الطريق .

أما من طال به الأمد من المجاهدين ، فلم يظفر بالشهادة في الميادين ، فلتقر عينه وليهدأ روعه ، فصفقته ماضية ما امتثل شرطين نوه بهما كتاب الله تعالى بقوله (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً)[سورة الأحزاب 23] فالشرط الأول (ومنهم من ينتظر) ولا يخفى ما في الانتظار من الرباط على صدق النية وحسن الطوية ، والشرط الثاني قوله (وما بدلوا تبديلاً) انه الثبات على المبادئ والمضي قدما في طريق الأحرار، دونما مساومة مع الأشرار ،أو انحراف عن المسار ، أو تبديل للخيار... عندها سيحظى بمضمون صفقته ولازم بيعته وقد بشر بذا النبي بقوله : (من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وان مات على فراشه) [أخرجه مسلم] .

صفة الصفوة من المجاهدين

إن من أسبغ الله تعالى عليهم نعمته، فعقد معهم صفقته، وأمضى فيهم بيعته، لهم منارات هدى، يحتذى بهم ويقتدى ،وما من مؤمن حريص إلا ويبذل النفيس والرخيص للحاق بهم عبر انخراطه بركب صفقتهم، فالانخراط فيها أمارة ولاية، ومؤشر هداية؛ ذلك أن الجهاد باب يفتحه الله تعالى لخاصة أوليائه ، كما أن الشهادة اجتباء منه لخاصة أصفيائه ، (ويتخذ منكم شهداء) [سورة آل عمران140] ، ولما كانت البيعة مع الله تعالى ذات قدر ومكانة لا تطاولها الرقاب ، فكان من تمام منته على عباده أن هيأ لهم الأسباب ؛ أسباب تأهيلهم لئن يكونوا أهلا لاجتبائه واصطفائه، ليلحقوا بركب من سبق ، فيكون لهم مع الله تعالى بيعة حق تجعل لهم في دين الله قدم صدق ، وفي الأجيال المتعاقبة لسان صدق وشهادة حق ، يشرف فيها مقامهم ، وتعلو رتبهم ويطيب ذكرهم ، ذلك أنه (يشرف البذل بشرف المبذول ، وأشرف ما بذله الإنسان نفسه وماله ، ولما كانت الأنفس والأموال مبذولة في الجهاد ، جعل الله من بذل نفسه في أعلى رتب الطائعين ،وأشرفها لشرف ما بذله ، مع محو الكفر ومحق أهله وإعزاز دينه وصون دماء المسلمين) [أحكام الجهاد وفضائله لابن عبد السلام 54] .

من هنا فما أن فصل الباري جل شأنه مآل من اشترى منهم النفس والمال ، حتى شرع في تفصيل ما كانوا عليه من حال ، ليرد موردهم ، ويلبس لبوسهم من أراد تتبع أثرهم ، وترسم خطاهم ؛ فجاء قول الحق تبارك وتعالى (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروفِ والناهون عن المنكر والحفظون لحدود الله وبشر المؤمنين)[سورة التوبة112]، فهذه الصفات جاءت خبرا لمبتدأ محذوف تقديره (هم) إذ هي جواب لما ينقدح في الأذهان من سؤال عن حال هؤلاء لدى الكبير المتعال ، حتى عقد معهم البيعة وأحسن لهم عقبى المآل،فإذا بهذه الصفات :

(التائبون) قال الحسن– رحمه الله تعالى – : (تابوا عن الشرك وبرءوا من النفاق) [الطبري 36/11] .

(العابدون) قال قتادة : (قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم) [الطبري 36/11] .

(الحامدون) قال الحسن : (حمدوا الله تعالى في أحايينهم ، في السراء والضراء) [الطبري 37/11] .

(السائحون) قال ابن عباس– رضي الله عنهما– : (السائحون : الصائمون) مستدلا بحديث عائشة – رضي الله عنها – : (سياحة هذه الأمة الصيام) [الطبري 38/11]، وقال عطاء : (السائحون : المجاهدون) [القرطبي 171/8] لقوله r :

(إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله) [سنن أبي داود] . وقيل : (هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته) [القرطبي 171/8]، وقال ابن عاشور –رحمه الله تعالى – : (السائحون مشتق من السياحة وهي السير في الأرض ، والمراد به سير خاص محمود شرعا ... وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام وأشمل للمؤمنين المأمورين بالجهاد بخلاف الهجرة والحج) [التحرير والتنوير 41/11] .

(الراكعون الساجدون) أي :(المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود) [تفسير السعدي 353] .

(الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر) أي : (الآمرون بكل ما أمر الله به عباده ورسولهُ ، والناهون عن كل ما نهى الله عنه عباده ورسولهُ) [الطبري 39/11] .

(والحفظون لحدود الله) قال ابن عباس : (القائمون على طاعة الله تعالى ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد ، إذا وفوا الله بشرطه وفى لهم شرطهم) [الطبري 40/11] .

(وبشر المؤمنين)أي (بشر المصدقين بما وعدهم الله إذا هم وفوا الله بعهده أنه موف لهم بما وعدهم من إدخالهم الجنة) [الطبري40/11]، قال ابن كثير : (فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم والنعيم المقيم) [ابن كثير 218/4] .

فمن كانت حالهم أنهم يرجعون إلى الله تعالى تائبين متبرئين مما اقترفوه من ذنب ، متنصلين من كل زنة مردية وعيب ، عابدين لله تعالى بالليل والنهار سرا وعلانية عبادة يطهرون بها الجوارح ويهذبون القلب ، حامدين مولاهم في السراء والضراء عند الفرج وفي خضم الكرب ، صائمين لله تعالى جائلين بفكرهم في ملكه وملكوته سائرين في كتائب حق مظفرة تنشر الخير والبر وتلتمس القربات في كل درب ،راكعين ساجدين دائمين على صلواتهم محافظين عليها معظمين فيها الرب ، آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر صيانة للشرعة أن تنتهك حرماتها وتغتصب ، حافظين لحدود الله تعالى قائمين على أمره مجافين كل ريب ..فمن كانت هذه حالهم فقد اغترف من معين بشارته تعالى **(وبشر المؤمنين)** التي توحي إلى تهيؤ نفوسهم وتأهلها لعقد البيعة وإبرام الصفقة معه سبحانه ...

فذلكم مشروع تربوي ، لكل من أراد أن يسلك بنفسه السلوك السوي ، ليصنع من ذاته الشخص المجاهد القوي ، ومن رام الوقوف على فاعلية هذا المشروع وأثاره الطيبة تأتى له ذلك من خلال تفكره وتدبره لأول صفة فيه (التائبون) وآخر صفة فيه **(والحفظون لحدود الله)** فالتائب هو من يخرق ويرتق ؛ يخرق بالذنب ويرتق بالتوبة ، في حين الحافظ لحدود الله تعالى يتورع عن التورط والتلبس بشيء يناهضها ، وهكذا انتقل بهم البرنامج التربوي الرباني من أناس يقعون في الزلة ويتوبون منها إلى أقوام يحترسون من الوقوع فيها ابتداء ، فهم يجاهدون أنفسهم ويكبحون جماحها ...

وتجدر الإشارة أن هذه الصفات قد سطرت في كتاب الله تعالى بصيغة اسم الفاعل الدال على أصالتها في نفوسهم وديمومتهم عليها ، فهي سجايا ملازمة لهم مغروسة في نفوسهم راسخة فيها . وليست بالمناقب الطارئة عليهم التي يسهل انسلاخهم منها أو انفكاكهم عنها .. ومن ترسخت فيه هذه المناقب والخصال غدا بإذن الله تعالى مرشحا لئن يكون من الزمرة التي أظهر الباري جل شأنه استغناءه بها عن الذين في قلوبهم مرض والمنافقين أو المتخاذلين عن نصرة إخوانهم المستضعفين، حيث قال سبحانه **(يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذله على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)** [سورة المائدة 54] فهذا الدين لا يعدم أتباعا بررة مخلصين .. وشاهدنا المعاصر أهل فلسطين ، ومن آزرهم من عموم المسلمين .

صناعة الرجال

بات مما لا يختلف فيه اثنان ولا تتباين حوله وجهتان ، أن أطفال فلسطين صنعوا صناعة الرجال ، ولبسوا لبوس الأبطال ،فغدو معقدا للأمال ، وفي الأنفة والعزة مضرب أمثال ، وحققوا أمنية من قال (يا له من دين لو أن لـه رجال).

كيف لا وقد أصبح أطفال فلسطين كالطير الأبابيل ، ترمي بحجارتها كل معتد دخيل ، لا تقيل عن درب الجهاد والاستشهاد ولا تستقيل …

حتى اذا ما تساءل أحد يبغي التبصر والفهم ، كيف تأتت الرجولة لهؤلاء حتى آستثنيوا من حالة النوم ، التي طالما غط فيها جموع من القوم ؟ وكيف بهم وقد أداروا ظهورهم لأهل الشجب والاستنكار واللوم ، وخرجوا على أجواء التفاوض والسوم ، حتى رسخوا في النفوس يوما بعد يوم ، حتمية الحل الحهادي ، وضرورة وحدة الصف والأيادي ، لتحرير الأرض ودحر الأعادي ؟

عندها أجيب قائلا : كتاب الله تعالى قد رسم الطريق ، وجاءت سنة المصطفىr بالنموذج والتطبيق ، وفي منهجية الدعاة الى الله في فلسطين كان الدليل والتصديق ، فلا ألفين أحدا بعد ذلك يتشدق فيقول : إن المنهج الذي درج عليه هؤلاء إنما ينحصر صلاحه في الجيل القديم والرعيل العتيق .

من هنا – وعلى طريق صناعة الرجال – دعونا نمعن في كتاب الله النظر ، لنستقي منه الدرر ، عسانا نخطو على الأثر ، في معترك صراعنا مع أبالسة البشر ..

ابتدأ طريق صناعة الرجولة في القرآن الكريم من قوله تعالى **(لمسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)**[سورة التوبة 108]، فهؤلاء الذين انتشلوا أنفسهم من وهدة الغواية ، وربأوا بها أن تنخرط في سلك الضلالة ، وزجوا بها في المساجد ، فكان منهم الراكع والساجد ، والقوام العابد ، والصوام والمجاهد ، هؤلاء نعتهم القرآن بأنهم رجال ، ووجه رجولتهم يكمن في تمكنهم من مجاهد شهواتهم وكبح جماحها وتوجيه إرادتهم واستجماع عزيمتهم نحو صلاح أنفسهم ورشادها ..

وهكذا سمة كل من أراد لنفسه أن تتطهر من أردانها ، لتسمو بقيمها ، وتعلو بأخلاقها ، ففيه تسري روح الرجولة وعزيمتها ، لا كمن أتبع نفسه هواها ، وأوهن إرادته فغشاها من الخور ما غشاها ، ولم يزك بالخير نفسه ، إنما بالشر دساها .

حتى إذا تطهرت النفس مما شابها من دنس ورجس ، ظلت المساجد مشعل نور منها الطهارة والعفة والقيم والفضيلة تغترف وتقتبس ، ويبقى المتردد عليها الساعي إليها يصون إيمانه من النقص ، ورجولته من البخس ، لذا جاء قوله تعالى في شأن المساجد **(نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم)** [سورة التوبة 35] فمن تشوف لهذا النور ، وتشوق للهداية إليه ، ورام الوصول إليه ، أوضحت له تتمة الآية السبيل **(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيه اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار)** [سورة النور 36، 37]، فالمساجد هي نور الله في أرضه ، نعرض فيها أنفسنا على الله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة ، فتظل عارية من الرذيلة ، مكتسية بحلى الفضيلة ، مستقرة على الحق ، لها في دين الله تعالى قدم صدق وفضل سبق .

فهؤلاء الذين يطوفون ما يطوفون ، ثم إلى المساجد يأوون ، وبذكر الله وتسبيحه فيها ينشغلون ، لا يعيق هرولتهم إليها تجارة ولا بيع ، ولا مكسب يجنونه ولا ريع ، هم رجال بحق وصدق ، وقد أكد هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم في السبعة الذين يظلهم بظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل قلبه معلق في المساجد لا يخرج منه حتى يعود إليه) [متفق عليه] فانظر كيف أثبت الرجولة لمن كان هذا ديدنه ، وتلك عادته ..

حتى إذا صلح المرء في نفسه وضع رجله على طريق آخر للرجولة ، يرمي إلى إصلاح من حوله ، ألاوهوطريق الدعاة إلى الله عز وجل ، فذا معلم من معالم الرجولة بينه قوله تعالى **(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يقوم اتبعوا المرسلين)**
[سورة يس 20]، ورجولة هذا الصنف ظاهرة في أنهم حملوا دعوة الله عز وجل وصدعوا بها بلا تردد ولا وجل ، حتى وإن وافتهم في خضم ذلك المنية والأجل ، كرجل سورة يس الذي كانت خاتمته انتقال إلى جوار رب العالمين .

فإن لم يكن انخراطه بينا في سلك الدعاة إلى الله فهو لهم مناصح ، وعنهم يذود وينافح ، وفي سبيل ذب أهل السوء عنهم تراه يكافح ، كمؤمن آل فرعون حيث قال الباري في شأنه **(وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم**

إيمانه أتقتلون رجلا يقول ربي الله) [سورة غافر 28]، فاستحق وسام الرجولة إذ خلد القرآن وقفته ، إبان مدافعته عن موسى عليه السلام ، أمام من يصب على العباد نقمته ، ويبسط عليهم قوته ، ويخوفهم سطوته .

بيد أنه ثم صنف آخر من أصناف الرجال ، تعد رجولته تتويجا لهذه الصبغة التربوية، وحصيلة خيرة لهذه المراحل الأبية، التي ابتدأت من المسجد ثم نزلت في الميدان تدعو إلى الله على بصيرة ، وبآياته وكلم رسوله صلى الله عليه وسلم تبشر وتنذر وتعد وتوعد ، وللدعاة إلى الله عزوجل تناصح وعن أعراضهم تذب وتدافع أمام كل مفسد، وتلجم بحجتها كل فتان مغرض ، أو أفاك ملحد ، أو مروج للتطبيع والتهود ، حتى إذا نادى المنادي يا خيل الله اركبي كانت مع هذه الصيحة الجهادية على موعد ، فلم تبرح ساحات الوغى وميادين الفداء حتى تقتل أو تستشهد .. فمن لم يقض منهم نحبه ، ما فتئ يواصل دربه ، وإلى غطرسة عدوه لا يأبه ، فهو يبغي بجهاده الله ربه ، لم يبدل تبديلا، ولم يرض بغير الجهاد والاستشهاد بديلا ، فذلكم تبوأوا القمة السامقة في الرجولة ، وما زلنا نردد وصفهم في الكتاب بكرة وأصيلا **(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)**[سورة الأحزاب 23] .

مجاهدون راشدون

ما كشفته الشرعة الحنيفة من حقائق وأتت به من نصائح وتوجيهات ، غدا لدى كثير من الناس – بعد طول كبوة وعمق غفوة – من الأمور المسلمات ،في حين هو لدى المجاهدين الأفذاذ في طليعة ما ترسخ لديهم من قناعات ، ورسا في أذهانهم من بدهيات، واستقر في قلوبهم من يقينيات .

من ذلك ما كشفته الشرعة من حالة غدت سنة من سنن الدعوات ، مفادها : أنه لن تخمد نيران العداوات ، في نفوس أهل النحل الزائفات والملل المحرفات ، تجاه أهل التوحيد أتباع خاتم النبوات .

فهذا أمر مفهوم ومن قديم الزمان معلوم ، وقد أنبأ به بلسان مسدد ورقة بن نوفل بن أسد ، عندما قال لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم:

(إذ يخرجك قومك) فقال صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم ؟ قال : (نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) [متفق عليه].

فهي حجة دامغة تلجم كل من همّه أن يعكر لهذا الدين الصفاء ، ويميع لدى المسلمين عقيدة الولاء والبراء ، عبر تشدقه بإلغاء حالة الصراع والعداء ؛ يخيل إليه أنه بوسع البشرية جمعاء – على اختلاف مشاربها ، وتباين مواردها ، وتناقض مقاصدها – أن تلتقي على حالة من الوئام والصفاء ، متجاوزا بذا الحقيقة التي سطرها المولى في كتابه **(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)** [سورة البقرة120] وما كشفه عز وجل في محكم آياته **(ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم)** [سورة البقرة217] أو تقطع فريق منهم في معاداة أوليائه **(ولتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)** [سورة المائدة51]، وما يخالج صدور العدو من قبيح أمنياته **(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سوآءً)**[سورة النساء 89] ، في ضوء ذلك فما ظن من يريد أن يلغي حالة الصراع بين المسلمين المستضعفين في فلسطين وبين يهود المغتصبين ؟! سواء ألبس دعواه لبوس الدين ، أم سربلها بخلاف ذلك مما تزينه الشياطين ! في حين تجد المصطفى صلى الله عليه وسلم وبلسان عربي مبين يرسم طريق النجاة لعباد الله المؤمنين ، إن في حياتهم الدنيا أو يوم يقوم الناس لرب العالمين، فتراه يجيب من سأله عن الفرقة الناجية بقوله: (ما أنا عليه اليوم وأصحابي) [الإمام أحمد/المسند 2/ 332]. فلم يدرج المصطفى صلى الله عليه وسلم الفرقة الناجية تحت مسمى معين تحتكر فيه ، إنما أحال السائل إلى المنهج الذي يتوجب الاستمساك به والانخراط فيه، ليعصم صاحبه من الضلالة والتيه..

فما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في شتى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم يعد سبيلا للإنقاذ لمن لجأ إليه ولاذ ،ومما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، جملة من التشريعات والأحكام، تنور طريقنا في خضم معركتنا مع شر الأنام ،ونحاج بها من زج نفسه في دائرة الأوهام والأحلام ، ولكل مقام يواجه أهل فلسطين في غضون زحفهم ونفيرهم فلنبينا صلى الله عليه وسلم عنده وقفة وله فيه مقال :

ففي مقام استنصاح المشركين قال عليه الصلاة والسلام (لا تستضيئوا بنار المشركين) [أحمد، المسند3/99] أي (لا تشاوروهم في شيء من أموركم) [أحكام القران لابن عربي 1/ 296]، فقد (شبه الاسترشاد بالرأي بالاستضواء بالنار إذ كان فعله كفعلها في تبيين المبهم وتنوير المظلم) [النهاية في غريب الحديث لابن الأثير3/105] .

وفي مقام التواطؤ معهم قال صلى الله عليه وسلم: (من جاء مع المشرك وسكن معه فانه مثله) [سنن أبي داود والترمذي] . قوله: (من جاء مع المشرك) أي(أتى معه مناصرا وظهيرا له) [عون المعبود للمباركفوري 7/478]. سواء أكانت المناصرة أمنية أم مادية، أم إعلامية بترويج تطلعاته وتزيين هفواته وتبرير سقطاته وتسويق مخططاته.

وفي مقام استعمال المشركين قال صلى الله عليه وسلم : (إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ،فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم ،فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه) [الإمام أحمد ، المسند5/407].

فإذا كانت هذه حال من يستعملهم فكيف تكون حال من استحال أداة طيعة في أيديهم؟ .

وفي مقام ترسيخ الولاية بين أهل الإيمان والبراءة من أتباع الشيطان والطغيان قال صلى الله عليه وسلم: (أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله) [الطبراني في المعجم الكبير2/480 وصححه الحاكم] .

وفي مقام نصرة المؤمنين وعدم خذلانهم وإسلامهم للمتربصين والباغين قال صلى الله عليه وسلم: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه) [متفق عليه]. وقوله صلى الله عليه وسلم : (وما من امرئ مسلم ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته) [أخرجه أبو داود في سننه].

وفي مقام حصر المحبة في صفوف المؤمنين واحتجابها عن أعداء الملة والدين قال صلى الله عليه وسلم : (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) [أخرجه أبو داود في سننه]، ومن الثلاثة التي أقسم عليها النبي صلى الله عليه وسلم (ولا يحب رجل قوما إلا كان معهم أو منهم) [أخرجه الحاكم في مستدركه].

وفي مقام مكاشفة الظالمين للانتصاف للمظلومين ؛ ككف أيديهم عن ملاحقة الأحرار ومطاردة الأخيار، ومحاصرة المجاهدين قال صلى الله عليه وسلم: (إذا رأيت أمتي تهاب فلا تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم) [الإمام أحمد ، المسند 2/190].

وفي مقام تحصين الجبهة الداخلية واستدرار تكاتفها وتساندها وتكافلها ورص صفوفها في وجه عدوها قال صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [متفق عليه].

وفي مقام تعميق الوشائج مع المجاهدين والقيام على حوائج أهليهم وذراريهم ماداموا غائبين قال صلى الله عليه وسلم : (من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا) [متفق عليه].

فهذه جملة من الثوابت والمبادئ كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فان نحن تشبثنا بها وعضضنا عليها بالنواجذ ، ستظل تهدي خطانا في خضم صراعنا للتي هي أقوم ، وتدفع بنا في مواقفنا للتي هي أحكم ، وفي آخرتنا تسوقنا بإذن الله مولانا للتي هي أسلم وأنعم .

في حين إن بدلنا وغيرنا وتثاقلنا أن نخرج على الناس بمثل ما خرج به عليهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ،بذريعة عدم استفزازهم وإثارة حفيظتهم واضرام نار عداوتهم ، فيا حسرة على العباد !سيكون موقف عدوهم منهم أطغى وأظلم ،وستمضي بهم السبل في دنياهم للتي هي أسأم ، ويوم يقوم الأشهاد تسلمهم للتي هي أنكى وأشأم .

إذا تقرر ذلك فأي المبادئ أحق أن تتبع ، وبها يصدع ، وعليها يلتقى ويجتمع ؟ تلكم المبادئ التي أعلنها المصطفى الأمين صلى الله عليه وسلم أم (لائحة إعلان مبادئ) تملى علينا بكرة وأصيلا وفي كل حين، تريدنا أن نؤمِّن ونصافي فضلا عن أن نسالم ، من طوقت أعناقهم لأهالي فلسطين بمظالم ، من تدنيس مقدسات وتغيير معالم ، وسفك دماء وانتهاك محارم، ومن صفحات سجلاتهم بحق البشرية جمعاء تعج بالمآثم !

كيف وسيد المجاهدين صلى الله عليه وسلم قد أعمل في فريق منهم السيف ، وآخرين على شاكلتهم من أرباب دياناتهم أخضعهم لأحكام لا شطط فيها ولا حيف، أفترانا بعد ذلك نوادعهم ، وننزلهم في أرضنا منزلة الضيف ، ونحسن لهم القرى ، وهم ما أن يلتقطوا أنفاسهم حتى يستجمعوا لنا القوى ، ليحكموا على فريق منا بالتشريد والنوى، ويسومون آخرين سوء العذاب ، وكلا يجرعونه كؤوس الحسرة والأسى...

فهل من إيمان مثل إيمان محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه ، ليهتدي كل منا فيستقيم في دربه ، ويبقى سائرا في مرضاة ربه ، مرابطا في معسكر التوحيد وحزبه ، مؤتمنا على قضايا أمته ودماء شعبه **(فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا)**[سورة البقرة 137]، اهتدوا في كل ميدان، ومنه ميدان مقارعة الطغيان، **(وإن تولوا)** عن مثل ما كان عليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام المجاهدون **(فأنما هم في شقاق)** سيشيع بينهم التنازع والشقاق ، ويحل بساحتهم الانقسام والانشقاق ، لتغشاهم بدا مذلة، وترتسم عليهم ذلة ، تلازمهم في الحياة الدنيا إلى يوم التلاق ...

الـ ُرَّار هم أصحاب القرار

بموازين القسط والعدل قامت السموات والأرض ، فما يحيد عنها بعد ذلك إلا كل فتان ذي ضلالة أو خوان ذي غرض ، أو امرِؤ ذو هوى استحكم في قلبه مرض ، فليس يعبأ بعد ذلك إن هو تاجر بالذمة والضمير لقاء أرب رخيص وعَرض...

من هنا فهؤلاء الذين صنعوا من دمائهم قناديل لأمتهم تنور لها المسالك ، وتهديها سبلها إذا ما اكتنفتها الظلمات الحوالك ، وتربأ بها أن تنزلق في مساخط توردها موارد المهالك، هؤلاء ينبغي أن تقتفى آثارهم، وتتبع خطواتهم ، ويسمع صدى لصيحاتهم ...

أليس من سل سيفه يروم السمو ، لا يبغي الفساد في الأرض ولا العلو ، إنما هدفوا نحورهم للعدو ، نصرة لمبادئ امتثلوها ، وحقوق مسلوبة هموا أن ينتزعوها ، وأرض مغصوبة عزموا على أن يحرروها ، ومقدسات مدنسة تقاسموا أن يطهروها ، من رجس أشرار ، وبراثن فجار ، سطوا عليها على حين غفلة من أهلها فاغتصبوها ودنسوها ... أليسوا حقيقين بأن يكونوا أهل حل وعقد؟ ، وجديرين بأن يكونوا أهل تقييم ونقد ؟ لا سيما إذا ما حمي الوطيس وجد الجد ، بالتالي فكل ما من شأنه أن يقدم بين أيديهم ، أو من دائرة صنع القرار يستثنيهم فهو رد .

فأيما جماعة مجاهدة هذا ديدنها ، وهذه مقاصدها ، وتلكم وجهتها ، كافأها العزيز الغفار بأن أسند إليها القرار ، بعد أن حباها بملكات ، وحفها بنفحات ، وخصها بفتوحات ، تمكنها من حل المعضلات ، والخروج بمواقف نيرات ، في خضم الفتن والأزمات ، حيث قال جل شأنه **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وإن الله لمع المحسنين)**[سورة العنكبوت69] قال ابن زيد – رحمه الله تعالى –: (قوله **(جاهدوا فينا)**: أي قاتلوا فينا) [تفسير الطبري 15/21].

لذا قال سفيان بن عيينة – رحمه الله تعالى - : (إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور ، فان الله تعالى يقول **(لنهدينهم سُبلنا)**] تفسير القرطبي 242/13] .

فالمجاهدون وأهل الثغور هم المهديون ، فإذا ما اختلفت الآراء وافترقت السبل، فالهداية في ترسم خطاهم ، واقتفاء آثارهم ، والنزول عند رأيهم ، ذلك أن لأهل الجهاد من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ،ممن هم في جهاد الهوى والشيطان ، لأنه لا يوفق في جهاد العدو الظاهر إلا من هو لعدوه الباطن قاهر ، من هنا يكون المولى عز وجل (قد علق الهداية بالجهاد ، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادا ، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل منه) [ابن القيم – الفوائد 59] .

وقد فطن السلف الصالح – رضوان الله عليهم – لهذه الأمور ، فها هم جهابذة علمائهم يحيلون على أهل الثغور ، ما أشكل عليهم من مسائل ونزل بساحتهم من معضلات الأمور ، وحسبك في هذا قول ابن المبارك والأوزاعي – رحمهما الله تعالى – : (إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر – يعني أهل الجهاد – فان الله تعالى يقول **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا)** [ابن القيم – مدارج السالكين 510/1] .

قال السعدي – رحمه الله تعالى – : (هذا كله يدل على أن أولى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد) [تفسير السعدي 636].

فإذا كان ذلك كذلك توجب المسير إليهم ، للوقوف على وجهات نظرهم ، لنتلقفها منهم ، فيكون عليها التجمع والتلاق ، إذا ما عجّت الساحة بالجدل والشقاق، وخيمت على الأمة بوادر انشقاق .. أما أصحاب الهوى وأهل الأهواء فلا انجراف وراء آرائهم ولا انسياق ، إذ لا يعقل أن يستمع الى الفُرّار ، في حين يصيب الآذان وقر إذا ما تكلم الكُرّار ! إن من يصوغون بدمائهم القرار ، وهم مرابطون على خطوط النار ، يحرسون شرف الدار ، ينشدون بذا مرضاة الواحد القهار ، لهم آمن على مصالح الأمة ، وأقدر على محو الثلمة ، وأصدق في كشف الغمة ، ممن يهرولون لاصطناع كيانات هزيلة ، في ظلال قوى دخيلة ، يأتمرون بأمرها وينتهون بنهيها ، كيانات لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولا ترفع عن الأمة شيئا من الذلة والخنوع ، هذا إن لم تجر عليها الوهن والخضوع ، ويتجرأ – في ظلالها – ضعاف النفوس ممن لا يتوانون أن يكون لهم في الخيانة ضلوع ...

وبعد : فإذا كانت المواقف البهية ثمرة ناجمة عن دماء زكية يجود بها بررة ، فأي عدالة تسوغ أن يهيمن على القرار ملاحدة كفرة ، أو أن يتكلم في شأن العامة رويبضات فجرة ، في حين يجرد منه مَنْ مهروا دماءهم لعز أمتهم ، وباعوا لله أنفسهم، لتحرير أولى قبلتهم ومسرى نبيهم – صلى الله عليه وسلم –؟!فان لم يكن بذل النفس مخولا لتبوئ مقعد اتخاذ القرار والإدلاء بالرأي ،وحجة دامغة تلجم من يريد أن يستأثر به من أهل الزيغ والغي والبغي .. فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ وبأي حجة بعدها يحاجّون ؟!

أحوال الناس عند الـ حاف ...

ألم تر أنه لمن الموافقات العجيبة ، والمغازي المهيبة ،أن تتبدى أحوال المرجفين ، وتتكشف للناظرين ، في غزوة مثل غزوة الأحزاب ! التي تنادى فيها أعداء الملة والدين ، فتحزّبوا وتكتبوا وتجيّشوا لاستئصال شأفة الإسلام والمسلمين ، إذ تأججت في قلوبهم الأحقاد الدفينة ، فيمّموا وجوههم شطر المدينة ، يبغون بالقتل محمدا وصحبه، ويرومون بالمساءة دينه..ذلك أنه عندما يُتحزب ضد أمة الإسلام ، ويحاصرها عدوها بإحكام ، تتكشف معادن النفوس ، فمنهم من يلبس للحرب اللبوس، ليقحم بجسده وخيله المنايا وعليها يدوس ، وآخرون من دونهم يتسربلون سرابيل الخذلان ، ويتقمصون أقمصة النكوص ، يغشاهم الهلع ، ويخيم عليهم الفزع، لينقلبوا أعينا خئونة خلال الصفوف المؤمنة تجوس .. فيتضح وقتئذ ويفتضح أمر من اتخذ الديانة كلمات طائرة ، وأماني مرفرفة ، من شعائر مجردة وطقوس ، فتراه يتحاشى النزال ومنه يتوارى وعن أعين الناس يلوص ، وإذا ما سئل الفتنة لن يتوانى عن اتيانها وفي بحرها اللجي يغوص ...

في ضوء ذلك كشفت سورة الأحزاب أن الناس عند الزحاف على ثلاثة أصناف :

إما أهل أصالة وإنصاف **(ولما رأى المؤمنين الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما)** [سورة الأحزاب آية 22]

أوعمالة وإرجاف **(وإذ قالت طائفةٌ منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا)** [سورة الأحزاب آية 13] .

أو عزلة وانكفاف **(وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم)** [سورة الأحزاب آية 20].

وكلا سنتلوا عليكم منه ذكرا ، ونقص من خبره عظات وعبرا ...

.. أما أولئك الذين يخرون صرعى في معترك المواجهات يوم الزحف والتلاق ، فهم أشرف الخلق على الإطلاق ، ولا أدل على ذلك من أنهم اصطفوا لمجاورة الملك الخلاق ، لتسرج أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى قناديل معلقة في عرش الرحمن ، لتجري عليهم الحياة والأرزاق ، فهم **(أحياء عند ربهم يرزقون)** [سورة آل عمران 169] .

فقد خرجوا جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، لم ترهبهم غطرسة العدو عند ملاقاته ، ففي صدورهم إيمان بالله ورسوله، ويقين بما وعدهم ربهم في محكم آياته ، وإنهم وإن أجلب عليهم عدوهم بخيله ورجله وآلة البطش الحرب، ونشر الدمار والخراب في كل درب ، معتقدا أن سفك دم المسلم قربان يتقرب به إلى الرب ، كل ذلك لم يكن ليفت في عضدهم ، حتى وإن وقفت كل قوى الشر ضدهم ، فهم يواجهون مكر عدوهم المستطير ، يبغون بذا التحرر والتحرير ، فإذا ما تكالبت عليهم الأمم ، كانوا في ثباتهم كالطود الأشم ، وما جاوز حالهم ما وصفهم به ربهم الأعز الأكرم **(ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما)** [سورة الأحزاب آية 22].

فهم أهل أصالة وإنصاف ، أنصفوا دينهم وأمتهم ومقدساتهم من أنفسهم، أولئكم سلام عليهم في العالمين .

بيد أنه في خضم كل صراع ، يطلع علينا فئام من الناس ، تتباين مواقفهم عمن سبقهم ، من أهل الجهاد والحماس ، فليس لهم في ساحات الوغى بلاء ولا مراس ، إنما يجنحون لتحقيق مآرب سرعان ما تتكشف لكل ذي لب بلا التباس ، فلهم في الجهاد وأهله وأنصاره أغراض وأعراض ، لا تتم إلا عن نفوس عششت في قلوب أصحابها الفتن والأمراض ، حسبك أنه إذا ما داهم الأمة خطر ، جدوا في إشاعة أجواء الخور ، واستشرفت أنفسهم للمخادعة والغرر ، يبغون بذا الفتنة والضرر .فهم أهل عمالة وإرجاف .

وحالهم هذا مفهوم ، ومن قديم الزمان معلوم ، وقد شخصت غزوة الأحزاب نموذجا يحكي حال هؤلاء الذين فقدوا الرشد والصواب ، فمما جاء بحقهم في آي الكتاب ، قول رب الأرباب **(وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا)** [سورة الأحزاب آية 13].

ففي قولهم **(يا أهل يثرب)** انسلاخ من الأصالة ، ومغازلة لأهل الزيغ والضلالة، ودليل كونهم أهل خيانة وعمالة ، وأنهم إذا ما حزبهم أمر استحالوا حثالة، ذلك أن المصطفى صلى الله عليه وسلم نهى عن تسمية المدينة بيثرب ، مبينا بلسان عربي مبين ، أن هذا من صنيع المنافقين ، فقال : (يقولون يثرب وهي المدينة) [متفق عليه].

ذلك أن مسمى يثرب من الثرب وهو الإفساد ، أو من التثريب وهو : التعيير والاستقصاء في اللوم والتوبيخ، ومنه قول يوسف عليه السلام لاخوته **(لا تثريب عليكم اليوم)** [سورة يوسف الآية 92].

وهذا المعنى لا يليق بدار هجرته ، وموطن نصرته ، ومغرز رايته ، ومنبت دعوته صلى الله عليه وسلم ، والمؤمن الصادق إنما يتشبث بمبادئه ، ويستمسك بثوابته ، ويستعصم بأصالته ، إذا ما حفته المكاره ، ونزلت بساحته القوارع ، في حين يحيد عنها في مثل هذه الظروف كل منافق مخادع ، أو مستسلم موادع ، كأولئك المنافقين الذين كان الأولى بهم أن يتنادوا للجهاد ، ويتواثبوا على الاستشهاد ، ذودا عن العباد والبلاد، فيوصي بعضهم بعضا أن **(تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا)** لكنهم تقاعسوا ، فإذا بهم يصدعون بقولهم **(لا مقام لكم فارجعوا)** واعجباه ! فمن أي مراتع الجبن رتعوا ؟ ومن أي مراضع الهون رضعوا ؟ وفي أي واد سحيق انزلقوا ووقعوا ؟

ولا جرم أن الأمة على مر عصورها – لا سيما في واقعنا المعاصر – تبتلى بأمثال هؤلاء المرجفين الذين يجدّون في توظيف ما يطرأ من شتات في الصف ، وهيمنة لعوامل الضعف ، لدى أمة المصحف والسيف ، لتمرير حلول ، وتهيئة القبول ببنود ، تستساغ بزعمهم نظرا لطبيعة الظرف الموجود ، في حين أغمضت أبصارهم ، أو عميت بصائرهم ، عن البشائر المنعقدة بنواصي شعلة الجهاد المتقدة ، فأولئك هم المرجفون فآحذرهم ! ولا تأبه لدعواهم بل ذرهم ، فمواقفهم ساعة الزحاف أفتك في جسد الأمة من السم الزعاف .

وفي خضم الزحاف يطلع علينا صنف آخر من أهل الإرجاف ، يزينون لحلول يلبسونها لبوس النصر والظفر ، ويحيطونها بهالة من الفخر ، على أنها مكاسب أنجزت ، وحقوقا انتزعت ، فلا تذهب النفوس بعدها حسرات على شعلة الجهاد إن هي أخمدت، إذ يخيلون للعوام أن نفرة الجهاد قد حققت الهدف المنشود ، وأحرزت الغرض المقصود ، معوّلين على ما قطع لهم من وعود ، ومواثيق أشهد عليها وعهود ، يرومون مخادعة أهل الجهاد ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، لأن أهل الجهاد حفتهم عناية رب العباد ، كما نوه القران بذا وأفاد **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)** [سورة العنكبوت الآية 69] قال سفيان بن عيينة : (إذا رأيت الناس قد اختلفوا، فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى يقول : **(لنهدينهم سبلنا)** [القرطبي 378/13].

فحذار حذار! من دعاوى هذا الصنف الذي يؤسس بنيانه على شفا جرف هار ، لا يلبث أن ينهار..

ومنهم صنف أقحم نفسه في شر مستطير ، وواقعهم يفجر في النفس الأسى الكبير ، إذ تجدهم بدل أن يكرسوا وقتهم ، ويستفرغوا جهدهم لتفعيل الصمود ، وتعزيز سبل المقاومة ، ويوصدّوا في وجه عدوهم أبواب التفاوض والمساومة ، جنحوا إلى تبادل العتاب والملاومة ، مع مؤسسات وهيئات دولية ، يطرقون أبوابها بصفة يومية، لاستصدار قرار واستخلاص تقرير ، يدين العدو ويظهر أنه المعتدي الشرير ، وكأن العدو يقيم لتلك القرارات أو المؤسسات وزنا – إلا ما أشرب من هواه – وكأن إدانتها له تقوم مساره وممشاه ، وكأن هذا التقرير سوف يسمن

أهل فلسطين ويغنيهم من جوع ، ويضمد جرحهم النازف ويكفكف لثكلاهم الدموع ، ويبعث الأمل لدى البراعم الشموع، ويطفئ لهيب القلب الموجوع ، جراء فراق أهل له وأحبة عاشوا بين ظهرانيهم في أحضان التلال والربوع ، غيبهم تحت الثرى اعتداء غاشم مصروع .. وكان الأجدى بهم بدل أن يشكوا الظلم للظلام ، أن ترتفع أكفهم لذي العز الذي لا يضام ، ويستفيقوا من أحلام اليقظة والمنام ، ليدركوا أن من يستجيرون به سوف يمر على مآسيهم مرور اللئام ..

وأما أهل الانكفاف فقوم نأوا بأنفسهم عن الأحداث ، فلم يولوا قضايا أمتهم أي اكتراث ، حتى وإن تحزبت الأمم على أمتهم وأطبقوا عليها الالتفاف ، أو مورس عليها التعذيب والبطش والتنكيل والإبادة والاجتثاث ، أو صلى العدو بحرابه أمتهم صليًا ، سيتخذون ذلك كله وراءهم ظهريًا ، ويعيشون عن الأحداث في عزلة نفسيّة وحسيّة ، ولن تجد من أقلامهم أو جهدهم أو أموالهم ما اتخذ لنصرة القضية سخريًا ، فلم يواسوا بما أوتوا من أقعدته الأحداث جثيًا، ولم ينفعوا بها من المجاهدين إنسيًا ، لذا جازاهم القرآن بأن جعلهم نسيا منسيًا ، فأخمد ذكرهم ،وحط شأنهم ولم يعبأ بمصيرهم، إلحاقا بهم بأشياعهم وأضرابهم ممن جاء في سورة الأحزاب التنديد بهم **(وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسئلون عن أنبائكم)**[الآية 20] أو في سورة الأعراف من إغفال لمصيرهم **(وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)** [الآيتان 164، 165] فبينت الآيات مصير الناهين عن انتهاك الحرمات ، ومآل من اجترح السيآت ، في حين أهل الانكفاف كان أن لقتهم أزمنة النسيان ،وتجاوزتهم عناية الرحمن ،ولا يخفى ما في ذلك من امتهان لهم وخذلان .

در الفساد بإيقاد شعلة الجهاد

ما فرّط الباري جل شأنه في الكتاب من شيء ، فمن كلٍ قصّ علينا ذكرا ، وعلى ما ينفعنا في أمور ديننا ودنيانا سلط الضوء ، مبينا مفصلا مآل المصلحين وعاقبة المفسدين أهل السوء .

ومن تمام نصحه للعباد نهيه إياهم عن الانزلاق في وهاد الفساد **(ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)** [سورة الأعراف 56]، ومن باب التبصرة للعبيد ، والذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فصّل في الكتاب المجيد أسباب الفساد وعوامل الإفساد ، لنتنبه إليها فنوصد في وجهها الأبواب ، ويكون من بيننا وبينها حجاب ، ويظل المؤمن منها محترسا ، وخلف إيمانه وقيمه منها متترسا ، وعلى طريق مجاهدتها ومناهضتها لجهده مكرسا .. فبين جل شأنه أن للفساد خمسة أسباب ، إذ الفساد فيها محصور وعليها مقصور؛ منها سببان ممتنعان ، قد كفيها الخلق من انس وجان ؛ فالسبب الأول الممتنع بينه قوله تعالى **(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون)** [سورة الأنبياء22]، فالحمد لله **(ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)** [سورة المؤمنون91]، قال تعالى **(إلهكم إله واحد)** [سورة النحل 22] .

والسبب الثاني الممتنع بينه قوله جل شأنه **(ولو أتبع الحق أهوآءهُم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن)** [سورة المؤمنون71]، والحمد لله فالحق لا يتبع أهواء الناس ، إنما هو أبلج لا يكتنفه غموض ولا التباس.

ليبقى للفساد بعد ذلك ثلاثة أسباب ، تستدعي استنهاض عزائم الدعاة أولي النهى والألباب ، لئلا تجنح إليها جموع من البشرية فيصبّ من فوق رؤوسهم العذاب . فأولى الأسباب الثلاثة جلاه قوله تعالى**(ظهر الفسادُ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)** [سورة الروم 41] فما نشاهده اليوم بأمّ أعيننا من فساد في الأرض عم وبدواهيه طم ، سببه **(بما كسبت أيدي الناس)** فالباء سببية ؛ أي بسبب ما اجترحته الأيدي من آثام ، واجترأت عليه من جريمة واجرام ، وامتدت إليه من مطعم ومشرب وملبس ومسكن متقلبة فيه كسائمة الأنعام ، غير عابئة أمن حلال هو أم من حرام، كانت عاقبته أن أضعف إيمانها ، وسلبها أمنها ، وأجهض أمانها **(ليذيقهم بعض الذي عملوا)** فهذه نتيجة فعلها ، وحصاد ما زلت فيه قدمها . ومن رحمته تعالى ولطفه بعباده أنه جعل العقوبة على بعض ما عملوا ، وإلا فلو كانت على كل ما عملوا لأضحت الحصيلة **(ولو**

يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى) [سورة فاطر 45] فبتأخيرهم الى أجل مسمى يتوب منهم من يتوب ، ويثوب الى رشده من يثوب ، فيبرأ مما تورط به من خطايا وذنوب ، ويجهد لمحو ما لصق به من نقائص و عيوب ، ومن رحمته تعالى وعنايته بخلقه وتربيته لهم كذلك أنه يذيقهم على ما كسبت أيديهم ؛ ففي الإذاقة تكون الصحوة والإفاقة ، والرجوع عن دروب الصفاقة ، لتبدأ الأمة باستفراغ ما لديها من وسع وطاقة ، بغية العودة للرشاد ، والتنصل مما تلبست به من فساد، لتكون هذه الإذاقة مقدمة نيرة لنتيجة خيرة هي **(لعلهم يرجعون)**. واليوم تلحظ أمة الإسلام بعامة وأهل فلسطين بخاصة قد عاشوا ويعيشون مرحلة **(لعلهم يرجعون)** فبعد أن أتى عليهم حين من الدهر غصّت فيه ساحاتهم بالرايات ، وعجّت بالشعارات ، فتشعبت بذا الولاءات ، التي لم تزدهم إلا عنتا على عنت ، وشتاتا اثر شتات ، وغصة تلتها غصات ،الى أن تفتحت أبصارهم وبصائرهم على هدى ربهم ، فشدوا إليه الرحال، ويمّموا وجوههم شطره، مستمسكين بحبله ، معتصمين بقيله ، مستعذبين المنايا في سبيله .

أما السبب الثاني من أسباب الفساد فبينه قول رب العباد **(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبير)** [سورة الأنفال73]
والولاية هي : (النصرة والمحبة والإكرام والكون مع المحبوب ظاهرا أو باطنا) إنها التقارب النفسي والحسي الذي يتوجب أن يصرف الى عباد الله المؤمنين ويشيع بينهم ، وينقطع عن أعداء الملة والدين ويحتجب عنهم ، تماما كما هي الحال بين القوم الكافرين في موالاتهم بعضهم بعضا ، واتخاذهم المسلمين عدوا لهم وضدا .

وفي هذا الصدد حفلت آيات الكتاب بالدعوة الى قطع أواصر المودة والتحاب ، ووشائج المصافاة والانجذاب، مع أهل الشرك والكفر والارتياب، فضلا عن تقديم المناصرة لهم والحماية ما داموا أهل ضلالة وغواية ، فقال جل شأنه **(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض)** [سورة المائدة 51]، وقوله **(يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة)** [سورة الممتحنة1] وقوله **(لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله)** [سورة المجادلة 22]. وتأمل قوله **(تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)** فالله تعالى لا يتعاظمه شيء وقد نعت الفساد بأنه كبير إيماء بذا الى الشر المستطير الذي سيداهم المجتمعات ، ويفرق الجماعات ، إن هي لم تخلص لله الولاءات ، وصرفتها لمن لا يضمرون لها سوى الشنآن والعداوات، ولا يبيتون لها إلا الدسائس والمؤامرات .. في حين ثم ثمرات منعقدة بناصية صفاء ولائها واستقامتها على أمر ربها ، منها : أنها تبقى على مكامن عزتها ، ومباعث رفعتها ، ومنابع قوتها ،وأصالة شرعتها ، فضلا عن استقلالية قرارها، وتميز شخصيتها فتتوقى بذا مؤامرة المتآمرين ، وتتحرز من تربص المتربصين ، لتورث فكرها الرصين لجموع الأجيال القادمين دونما أي غبش في التصور أو تميع في القيم أو تأرجح في المشاعر والعواطف ، وإلا فان لم تكن هذه المعالم حية يظل حولها الالتفاف وعليها التلاق ، انفرط عقد الناشئة الجدد انفراطا ما له من فواق ..

أما السبب الثالث من أسباب الفساد فوضحه قول الحق تبارك وتعالى**(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين)** [سورة البقرة251] أي : لولا الجهاد في سبيل الله تعالى الذي يدفع به جنود المؤمنين غائلة فلول المشركين والمعتدين لفسدت الأرض (فالمدفوع بهم جنود المسلمين والمدفوعون المشركون) [تفسير البحر المحيط 594/2] ويستشف من قوله تعالى **(ولكن الله ذو فضل على العالمين)** أن ثمرات الجهاد لا تنحصر بين ظهراني المسلمين ، إنما تتسع وتمتد لتشمل ربوع العالمين ، وفي هذا يقول أبو الحسن الندوي – رحمه الله تعالى – : (كانت الحروب الدينية الإسلامية حاقنة للدماء ، وعاصمة للنفوس والأموال وفاتحة عهد السعادة والغبطة في العالم) ؛ ذلك أن المجاهدين في سبيل الله تعالى إنما يحملون بجهادهم الفكر النير لكل أمة تريد أن تنعم بما تعتقد ، ويحملون التشريع الخير لكل جموع تريد أن تخرج من حمأة المعاصي وتقتصد ، من هنا فان الذين يتبعون الشهوات ويحبون شيوع الفتن والمظالم والمنكرات تجد فرائصهم من هذه الفريضة ترتعد، فإذا علم ذلك توجب أن تبقى جذوة الجهاد تتقد ، ذلك أن درء الفساد من ربوع العباد ، وطرد الأوغاد من البلاد ، إنما يكمن في إيقاد شعلة الجهاد وفتح باب الاستشهاد .. وعليه فأي دعوة لتعطيل فريضة الجهاد إنما هي جنحة بحق العالمين ، وليس مجرد مظلمة تخيم على أهل فلسطين ، لا سيما إذا كان الجهاد ضد من ذاق العالم منهم الويلات ، إن في صورة أفكار مضلات ، أو فتن مزلات ، أو إثارة نعرات عنصرية ودينية من شأنها أن تفجر الأزمات ، أو الوقوف وراء رجات اقتصادية ومشكلات سياسية أغرقت البشرية في حروب داميات ....

تلـ أمانيهم

ليس من شيء أصدق في كشف الخفايا التي في الحنايا ، ولا أوثق في تجلية الخبايا التي في النوايا ، مما تختزنه نفوس من عادانا، من كتاب الله مولانا ...وقد تجسدت حقائقه في أرض الواقع فبتنا ننظر إليها عيانا ، فيا لها من مزية لم يحظ بها أحد من العالمين سوانا – معشر المسلمين– في خضم مقارعتنا لأعداء الملة والدين ، فقد سبر لنا كتاب مولانا غور النفوس ، لنستقي منها العبر ونستشف الدروس .

فمن تصفح آيات الكتاب المجيد ، وقف على ما يختلج صدور العدى من أمنيات تجاه المسلمين ، في كل ميدان وصعيد؛ وثم إفصاح عن شواهد للإيضاح ، ومن استقصى وقف على المزيد :

ففي الميدان الفكري يطالعك قوله تعالى **(ودَ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق)** [سورة البقرة 109] فالود(محبة الشيء وتمني كونه)[مفردات القران للأصفهاني 860] فهي مودة مقتضية معنى التمني ، وقوله **(يردونكم)** بصيغة الفعل المضارع يشي بأن القوم ما زالوا يودون عود المسلمين إلى الكفر فتلك لهم غاية ، أن ينسلخ المسلمون من دينهم وينخرطوا في سلك الغواية ، لإدراكهم أنهم بانسلاخهم عن دينهم لن ترفرف لهم بالعز راية ، وهذا ما شهد به التاريخ وكم في التاريخ من عظة وآية ، فهما يومان للعرب في التاريخ ، يوم عزوا فيه وسادوا ولغيرهم من الأمم والشعوب قادوا ، ويوم ظلموا فيه واضطهدوا على أيدي النصارى والذين هادوا ، أما اليوم الأول ، يوم العزة والكرامة فحينما اتخذوا القران لهم دستورا ، وأما اليوم الآخر يوم الحسرة والندامة، فحينما ولوا على أدبارهم نفورا ...

أماعلى الصعيد النفسي فجماع أمنياتهم فيه شخصه قوله تعالى **(ودوا ما عنتم)** [سورة آل عمران 118] أي رغبوا فيما يعنتكم ، والعنت هو النصب الشديد و الضرر الشاق المؤذي [لسان العرب 434/4]، وعليه فما يلحق بالأمة من هم ، وينزل بساحتها من غم ، تجده مبعث فرحتهم ، وما يصيبها من مواجع ، ويخيم عليها من فواجع ، فهو باعث غبطتهم، وما يمسها من شظف في العيش ، وضيق في الأرزاق وحصار يضيق عليها الخناق ، ويجر عليها الأوصاب، يقع عندهم موقع الشماتة والترحاب ، (إنها سورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة والانفعالات الظاهرة ، والحركة الذاهبة الآيبة ، وتسجل بذلك نموذجا بشريا مكرورا في كل زمان وفي كل مكان، لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونثر الشوك في طريقهم والكيد لهم والدس ما واتتهم الفرصة في ليل أو نهار ، شر مبيت ، نوايا سيئة تجيش في صدورهم .. ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، نرى مصداق ذلك فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود) [في ظلال القران 452/1]

أما أمنياتهم على الصعيد السياسي فيمثل لها بقول الباري جل شأنه **(ودوا لو تدهنُ فيدهنون)** [سورة ن 9]، فالادهان : المصانعة والملاينة والمقاربة في الكلام وإظهار خلاف ما يضمر [لسان العرب 434/4] فهو مأخوذ من الدهن ؛ شبه التليين في القول بتليين الدهن ، إنها المجاملة في المواقف على حساب العقيدة، والمساومة على حساب المبادئ والثوابت ..

وما كان منهم من أمنيات على الصعيد الأمني كشفه قول الحق جل وعلا **(ودت طائفة من أهل الكتب لو يضلونكم)**[سورة آل عمران 69] أي تمنت جماعة من أهل التوراة من اليهود وأهل الإنجيل من النصارى لو يضلونكم ، بمعنى لو يهلكونكم ، ومنه قوله تعالى **(وقالوا أءذا ضللنا في الأرض أءنا لفي خلق جديد)** [سورة السجدة 10]، [انظرتفسيرالطبري308/3] ، وأبواب الهلاك تفتح علينا من قبل هؤلاء على صور شتى : فتارة عبر أفكار ضالة مضلة، من شأنها أن تلحق بأهلها خيبة وذلة ، وتارة بتدفق وابل من الشبهات ، أو سيل من المفاتن والشهوات ، وأخرى بانحياز في السياسات ليغروا بنا الطامعين الغزاة ، أو حروب نفسية ترمي إلى تقويض ما قام في النفوس من عوامل الثبات ، وزعزعة الاستقرار والطمأنينة في المجتمعات، والدفع باتجاه شق الصفوف والإيقاع في البلابل والاضطرابات...

ومن شر أمنياتهم ما يتمنونه على الصعيد العسكري وقد كشفه التوجيه الرباني الجلي **(ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)** [سورة النساء102] فيرقب أشرار البرية أن يغفل المسلمون عن حمل البندقية ، فضلا عن كفرهم بها كخيار لحل القضية ، وكذا يودون غفلتهم عما حباهم الله تعالى من مقدرات ، وخصهم به من دون العالمين من ثروات ، تكون عونا لهم في النائبات ، وردءا في النازلات ، وذخيرة خيرة في الملمات ، لتكون النتيجة عندها **(فيميلون عليكم ميلةً واحدة)** ميلة لا تبقي ولا تذر ، يتجرع غصتها ويحصد مرارتها أهل البوادي والحضر ، يقحم رذاذ شرها المتطاير كل بيت من وبر أو مدر.. فإذا كانت

هذه الحال إذا ما غفل المسلمون عن السلاح! فكيف إذا ما طرحوه جانبا وكفروا به كخيار لتضميد الجراح واعلاء الراية في الساح ؟!لا ريب أن العاقبة ستكون أدهى وأمر ..

وإذا كان ذلك كذلك فالمقام يستدعي توضيح ملابسات وتصحيح فهومات ؛ إذ يقع كثير في التباس وإشكال ، اثر سماعه شنشنة أقوال ، تطلقها ألسنة من العدى ، واعدة بتبدل الأحوال ، موهمة بتغير السياسات والأفعال ، فما يلبث فئام من الناس أن يعقدوا عليها الآمال ، متناسين أو غير مدركين قول الكبير المتعال **(يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم)** [سورة التوبة 8] فما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، خلاف ما يدندن به العدو في الظاهر ، ولا يفوتنا أن واقع الحال أصدق من زخرفة المقال ، وميدان دغدغة العواطف لا يصلح للاستناد عليه في تحديد المواقف ، وإلا فهل عميت الأبصار عما يطارد المسلمين في فلسطين من قصف ، ويمطرون به من وابل من القذائف !؟

وفي صدد تصحيح فهومات نقرر : انه ليس من المعقول أبد ولا المقبول ، أنه تحت وطأة الضغوطات ، يسلم المرء عقله لمصطلحات ، ويتحرك في ضوئها وكأنها مسلمات .. من ذلك ما زلت فيه أقدام ، ونسجت حوله أوهام ، وتعثرت فيه أقلام ، حول مفهومي الإرهاب والسيادة!التي جانب قوم في تعريفهما القيم المتوارثة السائدة ، فأتوا بتصورات وتوصيفات ما أظن سبقهم بها من أحد من أهل العصور البائدة ، والغريب أنهم بنوا عليها أفاعيل ، لا يقرهم عليها جيل ،أو يواطئهم عليها رعيل! وإلا فأي مسوغ عقلي فضلا عن معضد شرعي يجيز أن يوصف من وضعوا أرواحهم على الأكف ، ونفضوا عن الأمة الوهن والضعف ،وبدمائهم وأموالهم وأرواحهم يجودون ليرفعوا عنها الظلم والحيف ، ليوصموا بعد ذلك بأنهم أهل إرهاب و تطرف وعنف ، ويكون جزاؤهم أن يرزحوا في غياهب السجون ، أو يسلموا للثبور والمنون ، قربانا لما يسمى بمصلحة وطنية عليا ستكون هي الفائدة ،أو كيانات ذات استقلالية وسيادة محدودة ستكون هي الثمرة العائدة !.. في حين يطبق إجماع العقلاء على أن السيادة الحقيقية تقتضي أن كل رجْل تطأ أرض المسلين لتعيث فيها فسادا هي الإرهاب بعينه فحقها أن تقطع ، وكل يد أثيمة تجترئ على دماء الشعوب وممتلكاتهم فجزاؤها أن تشل لتردع ، وكل مروع لليتامى مرمل للحرائر معتد على الأيامى فمصيره أن يصرع ، وكل أمر من دخيل للنيل من مجاهد حر أصيل فتحت الأقدام يوضع ، غير آبهين لما يعد به العدو من كيان مشيد،على أنقاض عز أمة ووحدة شعب ، و دم شهيد ويتم وليد .. حتى وان ضرب له المواقيت والمواعيد ، فوعوده هراء ، وعهوده محض افتراء، فما يبدىء الباطل وما يعيد، **(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا)** [سورة النساء120] .

رجومًا للشيا ين

أما وقد علم أن المعركة إنما تدور رحاها بين جنود مؤمنة الله اصطفاها، وبصفقة من لدنه حباها، وبين فلول كافرة وجموع محتشدة الشر آواها ، ومردة الإنس والجن تحمل لواها ، فثم حقيقة ينبغي أن نلم بخيوطها من مبتداها إلى منتهاها، مفادها : ثم عداوتان تتقطعان في مخاصمتهما لأهل الإيمان ، ولا أدل على ذلك أن هاتين العداوتين ممتدتان إلى آخر الزمان ؛

أولاها : عداوة إبليس من الجن

وثانيها : عداوة يهود من الإنس

أما امتداد عداوة إبليس فقد كشفها المولى في كتابه **(قال أنظرني الى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين)** [سورة الأعراف 14، 15] كما بين المصطفى صلى الله عليه وسلم امتداد عداوة يهود بقوله (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود) [رواه مسلم]، ولا أدل على امتداد عداوتهما من قوله صلى الله عليه وسلم : (الجهاد ماض منذ بعثني الله تعالى إلى أن يقاتل آخر أمتي الدجال) [مسند الإمام أحمد]، ومعلوم أن الدجال الذي سيخرج آخر الزمان ويقاتله المسلمون سيتحالف معه يهود ؛ وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (يتبع الدجال من يهود أصبهان سبعون ألفا) [رواه مسلم]، وبذا تتوكد امتداد عداوة يهود ضد المسلمين إلى آخر الزمان .

في ضوء ذلك ما كان من عدو الله إبليس إلا أن كشف النقاب عن مشروعه الذي سيقدمه للبشرية **(قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين)** [سورة ص82]، **(قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين)** [سورة الأعراف 16]، وكذا يهود كشف الباري عز وجل مخططاتهم ومشاريعهم التي سيمارسونها على البشرية إلى آخر الزمان فقال : **(كلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا)** [سورة المائدة 64] .

ولا عجب من تشابه مشاريعهما القائمة على إفساد البشرية، فقد تشابهت من قبل مقاماتهما ؛ فهذا إبليس قد بين رب العزة مقامه بقوله **(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)** [سورة الكهف50]، وبذا يكون إبليس هو زعيم شياطين الجن؛ إذ الشياطين ذريته و سلالته .

أما يهود فثم آية في كتاب الله تعالى قد أزاحت الستار وأماطت اللثام عن مقامهم؛ إنها قوله تعالى – حكاية عن حال المنافقين – : **(وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا أمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون)** [سورة البقرة14]، قال حبر الأمة وترجمان القران عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – في تفسير قوله تعالى **(وإذا خلوا الى شياطينهم)** أي:(من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم) [تفسير ابن كثير183/1]، وبذا يكون يهود هم زعماء شياطين الإنس كما أن إبليس زعيم شياطين الجن .

ولا غرابة في ذلك ؛ فبين إبليس زعيم شياطين الجن ويهود زعماء شياطين الإنس تشابه في الصفات وتماثل في النفسيات وضحته آيات الكتاب البينات ؛

فمن صفات إبليس الحسد **(قال أرءيتك هذا الذي كرمت عليَ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا)**[سورة الإسراء 62].

وكذا يهود دب فيهم داء الحسد **(أم يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله)** قال مجاهد : (هم اليهود) [تفسير الطبري 138/5]، وقال قتادة : (حسدوا هذا الحي من العرب على ما آتاهم الله من فضله؛ بعث الله منهم نبيا فحسدوهم على ذلك) [تفسير الطبري 139/5] .

ومن صفات إبليس الكبر **(وإذ قلنا للملائكةِ اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)** [سورة البقرة34]، وقوله تعالى **(قال يا أبليس ما منعك أن تسجد لما خلقتُ بيدي أستكبرت أم كنت من العالين)** [سور ص 75] .

وكذا يهود استشرى فيهم داء الكبر **(أفكلما جائكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)**[سورة البقرة 87] .

ومن صفات إبليس نقض الأيمان والعهود والمواثيق **(يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطن إلا غرورا)** [سورة النساء 120]، **(وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور)** [سورة الأعراف21، 22] .

وتلك خصلة مركوزة في طباع يهود **(أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريقاً منهم)** [سورة البقرة 100]، **(الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرةٍ وهم لا يتقون)** [سورة الأنفال56] .

ومن صفات إبليس العنصرية ، بدت من قوله لرب العزة مبررا استنكافه عن السجود لآدم– عليه السلام– **(قال أنا خير منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين)** [سورة الأعراف 12]، فكان إبليس أول من دعا إلى العنصرية- القائمة على تفاضل اللون والجنس– وتحاكم إليها،وكان يهود أول من تابعه في ذلك وروج لها وتحاكم إليها ؛ لما خرجوا على العالم بأسره بمقولة شعب الله المختار وأن الأمميين – غير اليهود – ما هم إلا كلاب وخنازير خلقوا لخدمة يهود ولكن حتى لا يتقزز يهود وتشمئز نفوسهم وتتقبض صدورهم وهؤلاء يقومون على خدمتهم جعلوا كلابا وخنازير في جثمان انس، ولما تشابهت بين إبليس ويهود الصفات والنفسية فكان أن لفتهم السنن الإلهية ونزلت بساحتهم النواميس الربانية، إذ يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم منوها بسنة إلهية(من تواضع لله رفعه) [أخرجه مسلم] ، فبمفهوم المخالفة أن من تكبر على الله أو على خلق الله فسوف يضعه الله ، بالتالي حق على إبليس أن يوضع– أي يصبح وضيعا مهينا – وحق على يهود أن يوضعوا لتكبرهم وبغيهم... فكان أن تشابه مآلهما وتماثل مصيرهما ، وجوزوا بنقيض مقصودهما ؛ فهذا إبليس قد طرد من رحمة الله تعالى **(قال فاخرج منها فانك رجيم)** [سورة الحجر34]، وكذا يهود باءوا بغضب من الله وطرد من رحمته **(وباءوا بغضبٍ من الله)**[سورة البقرة61] .

وكتب الله تعالى اللعنة على إبليس **(وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين)** [سورة الحجر 35]، وكذا يهود **(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)** [سورة المائدة 78] .

وضربت على إبليس الذلة والصغار **(فاخرج إنك من الصاغرين)** [سورة الأعراف13]، وكذا يهود **(وضربت عليهم الذلة والمسكنة)** [سورة البقرة 61] .

كما ردهم العزيز الجبار إلى مصير واحد شاخص للأبصار، يلاحقهم ما تعاقب الليل والنهار، انه الرجم الذي يمطرون به على حد سواء، إن في فلسطين حيث ترجم شياطين الإنس على أيدي صبية صغار ،أو في بطحاء منى حيث ترجم شياطين الجن على أيدي حجاج بيت الله الأبرار، فضلا عما يلاحقهم من رجم دائم للردع ، إذا ما حاولوا استراق السمع **(ولقد زينا السماءَ الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين)** [سورة لملك 5] .

وهكذا لما تشابه يهود مع إبليس في امتداد عداوتها للمؤمنين ، وفي تشابه مخططاتهما، وتماثل مشاريعهما ، وتساوي مقاماتهما ، وتناغم نفسيتهما ، ووحدة مآلهما ومصيرهما.. فكان أن تشابهت وصية الله تعالى فيهما ؛ إذ كانت وصية الله تعالى للمؤمنين بحق إبليس **(أن الشيطنَ لكم عدوٌ فاتخذوه عدوا)** [سورة فاطر6]، وكانت وصيته لهم بشأن يهود **(لتجدن أشد الناس عداوة للذين أمنوا اليهود)** [سورة المائدة 82] .

وترتب على ذلك النهي والتقريع عن موالاة إبليس وجنده **(أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً)** [سورة الكهف 50] .

والنهي الأكيد والوعيد الشديد على موالاة يهود **(يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)** [سورة المائدة 51] .

وإذا كان ذلك كذلك فان أي دعوة لمصافاة يهود ومسالمتهم ومواداعتهم إنما هي دعوة لمصافحة الشياطين ، وانخراط في سلك ترويج مخططات القوم الظالمين ، وتحالف مع أبالسة ملاعين، وموالاة لأعداء الملة والدين ...

{ ولا تهنوا }

عني الشارع الحكيم بكتائب الحق المجاهدة أيما عناية , ولا أدل على ذلك من أنه واكب مسيرتها بالتوجيه والرعاية ، منذ اللحظة التي عزمت فيها أن تنازل أهل الضلالة والغواية ، حتى إذا ما احتدم الصراع ضربت عليهم من مولاهم الولاية ؛ إذ جاءت التوجيهات الربانية العلية لتشد من عزائمهم وتذكي هممهم، على طريق بلوغ الغاية ؛ غاية إعزاز الدين ونصرته ، ودحر الباطل وكسر شوكته ، حتى إذا ما شارفت الجولة الجهادية على النهاية ، طالعتها التوجيهات القرآنية لتنور طريقها وتحوطها بالنصح والهداية .

وتفصيل ذلك أن كتاب الله المجيد قد حمل بين طياته للعصبة المجاهدة جملة من النصوص تنهاها عن وهن مخصوص ؛ فكان أن نهتهم عن الوهن قبل نشوب المعركة وفي خضمها وعقب انجلاء غبارها ، وساقت مع كل نهي مسوغاته ، ووضحت مقتضياته؛

فأما النهي عن الوهن قبل المعركة فأفصح عنه قوله تعالى : **(ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً)** [سورة النساء 104] .

أي (لا تضعفوا ولا تتوانوا في طلب الكفار بالقتال) [الرازي 31/6]، بل (جدوا فيهم وقاتلوهم واقعدوا لهم كل مرصد) [ابن كثير 403/2] مبينا مسوغات هذا النهي بأن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم **(إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون)** (فكما يصيبكم الجراح والقتل فكذلك يحصل لهم) [تفسير ابن كثير 403/2] .

ومن مسوغاته أيضا قوله **(وترجون من الله ما لا يرجون)** أي (رجاء الشهادة إن قتلوا ورجاء ظهور دينه على أيديهم إذا انتصروا ورجاء الثواب في الأحوال كلها) [تفسير ابن عاشور 190/5]، وعليه (فأنتم أحق بالصبر منهم وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية لأنها ترى الموت مغنما، وهم يرونه مغرما) [فتح القدير للشوكاني 650/1]، وهذا يقتضي المبادأة بالغزو وأن لا يتقاعسوا حتى يكون المشركون هم المبتدئين بالغزو فالمبادئ بالغزو له رعب في قلوب أعدائه. قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية: (لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار ، أي في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يُضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم ... فليس من المروءة الإنسانية والشهامة

الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالت عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة ويدال عليه أخرى) [تفسير السعدي ص199] . والمؤمنون إنما (يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم ، فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتوجهون لله ، ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة ، فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام ، وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ..ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة ، معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين ، لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل ، ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها معركة مكشوفة متكافئة ، ولكن القاعدة لا تتغير ، فالباطل لا يكون بعافية أبدا ، حتى ولو كان غالبا ! انه يلاقي الآلام من داخله ، من تناقضه الداخلي ؛ ومن صراعه بعضه مع بعض ، ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء ، وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار ، وأن تعلم أنها إن كانت تألم فان عدوها كذلك يألم ، والألم أنواع ، والقرح ألوان **(وترجون من الله ما لا يرجون)** وهذا هو العزاء العميق ، وهذا هو مفرق الطريق **(وكان الله عليماً حكيماً)** يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب ، ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح) [الظلال 750/2] .

وأما النهي عن الوهن في خضمّ المعركة فجسده قوله تعالى: **(فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم)** [سورة محمد 35]، قال قتادة رحمه الله تعالى: (لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت لصاحبتها ودعتها إلى الموادعة) [تفسير الطبري 63/26] فقد نهاهم عز وجل عن إسلام أنفسهم لخواطر الضعف، والعمل بهذا النهي يكون باستحضار مساوئ تلك الخواطر، فإن الخواطر الشريرة إذا لم تقاومها همة الإنسان دبّت في نفسه رويدا حتى تتمكن منها فتصبح ملكة وسجية، فالمعنى ادفعوا عن أنفسكم خواطر الوهن واجتنبوا مظاهرها التي أولها الدعاء إلى السلم فهو المقصود بالنهي، قوله **(وتدعوا إلى السلم)** من باب عطف الخاص على العام ، وقد خُصّ بالذّكر لئلا يُظَنّ أن فيه مصلحة استبقاء النفوس والعدة بالاستراحة من العدوان على المسلمين ، فذلك يعود عليهم بالمعرة والمضرة لأنه يحطّ من شوكتهم في نظر المشركين فيحسبونهم طلبوا السلم عن ضُعف، فيزيدهم ذلك ضراوة عليهم ويُستخف بهم بعد أن أخذوا من قلوب عدّوهم مكان الحرمة وموقع البأس، فلهذا المقصد الدقيق جمع بين النهي عن الوهن والدعاء إلى السلم . [انظر تفسير ابن عاشور131/26] قوله: **(وأنتم الأعلون)** أي (وأنتم الغالبون آخر الأمر وإن غلبوكم في بعض الأوقات وقهروكم في بعض الحروب) [تفسير الطبري 64/26] قوله:**(والله معكم)** أي بالعون والنصر والتأييد وذلك موجب لقوة قلوبهم وإقدامهم على عدوهم، **(ولن يتركم أعمالكم)** قال مجاهد: (ولن ينقصكم) [الطبري 64/26]، وهذا يقتضي أن (لا تضعفوا عن قتال عدوكم ويستولي عليكم الخوف بل اصبروا واثبتوا ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلبا لمرضاة ربكم ونصحا للإسلام وإغضابا للشيطان، ولا تدعوا إلى المسالمة والمتاركة بينكم وبين أعدائكم طلبا للراحة والحال أنكم أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم أي ينقصكم أعمالكم، فهذه الأمور الثلاثة كل منها مقتض للصبر وعدم الوهن) [تفسير السعدي 790] .

وأما النهي عن الوهن في أعقاب المعركة فقد بيّنه قوله تعالى:**(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)** [سورة آل عمران 139]، قال السعدي رحمه الله تعالى: (ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم ولا تحزنوا في قلوبكم عندما أصابتكم المصيبة وابتليتم بهذه البلوى ، فإن الحزن في القلوب والوهن في الأبدان زيادة مصيبة عليكم وعون لعدوكم عليكم بل شجعوا قلوبكم وصبروها وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم) [تفسير السعدي ص150]، ذلك أن (الوهن يورث خور العزيمة وضعف الإرادة وانقلاب الرجاء يأساً والشجاعة جبنا واليقين شكا ولذلك نُهوا عنه ، وأما الحزن فهو شدة الأسف البالغة حدّ الكآبة والانكسار ، والوهن والحزن حالتان للنفس تنشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيترتب عليهما الاستسلام وترك المقاومة). [تفسير ابن عاشور 98/4]، ثم بيّن المولى جلّ شأنه سبعة مسوغات لهذا النهي ؛

أولها : قوله: **(وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)** فتلك (بشارة لهم بالنصر في المستقبل فالعلو هنا علو مجازي وهو علو المنزلة ، والتعليق بالشرط في قوله **(إن كنتم مؤمنين)** قُصد به تهييج غيرتهم على الإيمان، إذ قد علم الله أنهم مؤمنون ولكنهم لما لاح عليهم الوهن والحزن من الغلبة كانوا بمنزلة من ضعف يقينه فقيل لهم: إن علمتم من أنفسكم الإيمان) [تفسير ابن عاشور 99/4].

وثانيها قوله تعالى: **(إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله)** أي فأنتم وإياهم قد تساويتم في القرح ولكنكم ترجون من الله مالا يرجون، فتلك تسلية لما حصل لهم من الهزيمة.

وثالثها قوله تعالى: **(وتلك الايامُ نداولها بين الناس)** أي: (نديل عليكم الأعداء تارة وإن كانت العاقبة لكم لما لنا في ذلك من الحكم) [تفسير ابن كثير 127/2] .

ورابعها: **(وليعلم الله الذين آمنوا)** فمن الحكم أنه يبتلي عباده بالهزيمة والابتلاء ليتبين المؤمن من المنافق ، لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريده ولانخرط في صفوف العصبة المجاهدة من لا يريد لها سوى الخبال وسوء العقبى والمآل.

وخامسها قوله: **(ويتخذ منكم شهداء)** يعني يُقتلون في سبيله ويبذلون مُهَجهم في مرضاته ذلك أنّ (الشهادة أرفع المنازل ولا سبيل لنيلها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين؛ أن قيّض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس لينيلهم ما يحبّون من المنازل العالية والنعيم المقيم) [تفسير السعدي ص150] .

وسادسها **(وليمحص الله الذين آمنوا)** والتمحيص (درجة بعد الفرز والتمييز، التمحيص عملية تتم في داخل النفس، وفي مكنون الضمير..انها عملية كشف لمكونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكونات تمهيدا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب ، وتركها نقية واضحة مستقرة على الحق ، بلا غبش ولا ضباب) [في ظلال القرآن 482/1] والتمحيص طريق لمغفرة الذنوب وستر العيوب ورفع الدرجات عند علام الغيوب .

وسابعها **(ويمحق الكافرين)**أي (يستأصلهم بالهلاك، وأصل التمحيق محو الآثار والمحق نقصها) [فتح القدير للشوكاني 488/1] .

وكون غلبة الكافرين في جولة مبعث محق لهم ، ذلك (أنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم) [تفسير ابن كثير 127/2] وذلك كله يقتضي من المجاهدين في قلب المعركة الثبات والجلد أمام الأوغاد ليلتقي الجميع على شعار (إنه جهاد نصر أو استشهاد).

في ضوء ذلك امتدح الشارع الحكيم ثلة من الربيين المجاهدين أتباع النبيين حين نفضوا عن أنفسهم الوهن في تلك المقامات الآنفة الذكر فقال جل شأنه**(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)** [سورة آل عمران 146] فالمراد بالوهن هنا (قلة القدرة على العمل وعلى النهوض في الأمر، والضعف : ضد القوة في البدن ، وهما هنا مجازان ؛ فالأول أقرب إلى خور العزيمة ودبيب اليأس في النفوس والفكر، والثاني أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة ، وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة للعدو ، ومن اللطائف ترتيبها في الذكر حسب ترتيبها في الحصول ؛ فانه إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء وجاء الاستسلام فتبعته المذلة والخضوع للعدو) [ابن عاشور 119/4،118] .

(إذا دَعَا ُمْ لِمَا يُحْيِي ُم ...)

قضت السنن الإلهية والنواميس الربانية أن تكون الأيام بين الناس دولا **(وتلك الأيام نداولها بين الناس)** [سورة آل عمران 140]فأنى لمؤمن موحد ، أو كافر ملحد أن يجد عنها حولا **(فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا)** [سورة فاطر 43] فكل يطرق بها بابه ومنه ينال ، وتظل العبرة باختلاف العقبى والمآل ؛ فبينما يرد عباد الله الموحدون إلى أحسن حال ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فان أهل البغي والاستكبار تلفح وجوههم النار في لظى جحيم مستعر .

وعليه : فبالنظر إلى هذه المآلات تهون على المسلمين النازلات ، وان تفاقمت عليهم الجراحات ، وتزاحمت في ساحتهم الغصات ، فليست هي من قاصمات الظهور ، إنما ابتلاء ممن بيده مقاليد الأمور ، ليتميز المتخاذل الفرور ممن هو مرابط في ساح المبادئ والقيم يدور في رحاها حيث تدور ...

في ضوء ذلك فان للحياة الهنيئة المعتبرة معايير أخر ، ومقاييس مبرأة من الغرر ، الذي وقع فيه كثير من البشر ،ممن سلب عمق الفكرة وبعد النظر ،فظلوا أسارى نظرتهم السطحية في تفسيرهم لما يجري وجرى ..

وتفصيل ذلك جاء في قوله تعالى **(يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون)** [سورة الأنفال24]

أفادت الآية الكريمة أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وان كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات؛ فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا ، فهؤلاء هم الأحياء وان ماتوا ، وغيرهم أموات وان كانوا أحياء الأبدان ، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ، فان كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب لله وللرسول.

وثم صورتان من الاستجابة لله وللرسول باعثتان للحياة ، انعقدت عليهما كلمة المفسرين ، وثبتت مصداقيتهما على مر السنين ،من هدي إليهما فقد هدي إلى صراط مستقيم :

الصورة الأولى : هي الحياة النابعة من الإذعان للإسلام والانقياد له ظاهرا وباطنا .

والصورة الثانية : هي الحياة النابعة من الانحياز لخيار الجهاد والاستشهاد كسبيل لحراسة الدين ، وحماية حوزة المؤمنين .

أما الصورة الأولى فتتبدى فيما ذهب إليه قتادة – رحمه الله تعالى – من تفسير قوله تعالى: **(لما يحييكم)** بقوله :(هو هذا القرآن فيه الحياة والعفة والعصمة في الدنيا والآخرة) [تفسير الطبري 214/6] وكذا السدي بقوله (هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر) [تفسير الطبري213/6] وعليه : فإذا كان الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك الذي هو رسول الله من روحه فيصير حيا بذلك النفخ ، وكان قبل ذلك من جملة الأموات ؛ كما في حديث خلق الإنسان الذي يرويه ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: (.. ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : بكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح) [متفق عليه]. فكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول صلى الله عليه وسلم من الروح الذي ألقي إليه **(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله إلا أنا فاتقون)** [سورة النحل 2] فسر ابن عباس – رضي الله عنهما – قوله تعالى (بالروح) أي : (بالوحي) (تفسير الطبري 77/9) وكذا قوله تعالى: **(وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا)**[سورة الشورى52] قال السدي في قوله تعالى: **(روحاً من أمرنا)** أي (وحيا من أمرنا) [تفسير الطبري 46/13] فأخبر تبارك وتعالى أن وحيه روح ونور ،وعليه : فحياة الجسد موقوفة على نفخ الرسول الملكي ، و حياة الروح واستنارتها موقوفة على نفخ الرسول البشري ؛ فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان ، ومن حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى ، قال تعالى: **(أو من كان ميتا فاحييناه له نور يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)** [سورة الأنعام 122] فجمع له بين النور والحياة كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة ... [أنظر الفوائد لابن القيم ص 87 وما بعدها- بتصرف-]

أما الصورة الثانية ؛ صورة الحياة النابعة من الجهاد والاستشهاد فتتجلى فيما ذهب إليه جمع من أئمة التفسير إلى أن المقصود بقوله تعالى **(لما يحييكم)** أي (للحرب التي أعزكم بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم)قاله ابن اسحق [الدر المنثور للسيوطي 320/3]وقال ابن قتيبة (هو الجهاد الذي يحيي دينهم ويعليهم)[زاد المسير لابن الجوزي 3/ 339] وقال الفراء : (إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم) [زاد المسير339/3]؛ يريد أن أمرهم إنما يقوى بالحرب والجهاد ، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم واجترأ عليهم عدوهم ، ومهما يكن من أمر فان الجهاد ضرب من ضروب الاستجابة لله والرسول ؛ إذ استفاضت التوجيهات الربانية والنبوية التي تأمر بالجهاد وتحض عليه وترغب فيه ، كما أن الثمار المتوخاة من الاستجابة لله ورسوله سيظل (الجهاد وسيلة لتحققها وسياجا لها بعد حصولها) [تفسير المنار 9/ 632]وفي هذا المقام أثر عن ابن القيم قوله : إن الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة ؛ أما في الدنيا فان قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد **(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم)** [سورة التوبة 15،14] وأما في البرزخ فقد قال تعالى: **(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياءٌ عند ربهم يرزقون)**[سورة آل عمران169] وأما في الآخرة فان حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم .. ويكفي في هذا قوله تعالى: **(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا)**[سورة النساء69] وحديث أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال : (.. وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قلت وما هي يا رسول الله ؟! قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله)[صحيح مسلم رقم1885] فمن أمضى هذه الصفقة –صفقة الجهاد والاستشهاد – ارتفع إلى تلك المنزلة وحظي بحسن الصحبة والرفقة .

وإذا كان ذلك كذلك فقد عقد الشارع الحكيم في هذا المقام الثناء والمثوبة والأجر الجزيل على حالة مخصوصة من الاستجابة ؛ ألا وهي الاستجابة لله والرسول إذا ما انقشع غبار المعركة عن الساح ، حيث مظنة تخضب

الأجساد بالجراح ، ومطاردة المجاهدين وتناثر أشلائهم في الربوع والبطاح، وشروع أهل الإرجاف بالهمز واللمز والتشكيك بهذا الخيار متشدقين بالإفك البواح ، فقال عز من قائل: **(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم)** [سورة آل عمران 172] في خضم ذلك ما على المجاهد في مثل هذا الظرف إلا أن يتجلد رغم القرح ، ويتصلب رغم الجرح ، ويتماسك رغم الترح ، ملازما شرعة ربه مستجيبا لها ممتثلا أحكامها بلا منازعة ولا ممانعة ولا مرافعة ولا مدافعة، حتى وان خذله بعض قومه فلم يبد منهم سوى الوهن والبرح ؛ البرح من ميدان المعارك وساحات الوغى في حين تراه مستمسكا بالمبادئ النبيلة ، غير خاضع لضغوطات الواقع الثقيلة **(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوءٌ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)** [سورة آل عمران 174،173]

ومن النكت البديعة أن تختم الآية القرآنية بقوله تعالى) :**واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه** (إذ أبانت الآية أن (من سنة الله تعالى في البشر الحيلولة بين المرء وبين قلبه الذي هو مركز الوجدان والإدراك ذي السلطان على إرادته وعمله .. وهذه السنة القلبية من سنن الله تعالى في الإرادات والأعمال، وهي أعجب جمل القران ، ولعلها أبلغ في التعبير وأجمعها لحقائق علم النفس البشرية ، وعلم الصفات الربانية ، وعلم التربية الدينية) [أنظر: تفسير المنار 632/9] ومعنى قوله تعالى) **يحول بين المرء وقلبه**) :(يميته فتفوته الفرصة التي هو واجدها ، وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريده الله تعالى ، فاغتنموا هذه الفرصة وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله .. وإلا فان الله تعالى قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمه ويغير نياته ومقاصده)] الكشاف للزمخشري 204/2 [وعليه : تكون هذه الآية الكريمة دعوة لكل ذي قلب ذكي ، أوفهم سوي ،أو جسد قوي ، أو قلم نزيه بَهي ، أو ذي مال غني ، أن يسخر ما أنعم الله به عليه وما حباه ،في نصرة دينه والذود عن قضاياه ، مغتنما تقلبه بنعمة مولاه ، من قبل أن تلحق به السنن الإلهية؛ التي كشفها المولى عز وجل في سياق حضه لعباده على الاستجابة له ولرسوله فقال) : **واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون**](سورة الأنفال [24 فكل من واتته الفرصة للاستجابة لله والرسول بمناصرة الخيار الذي ارتضاه لعباده العزيز الغفار فتوانى فلا يأمنن إحاطة هذه السنة به.

ومن جهة أخرى فان هذه السنة تغرس في النفس البشرية ثلاث ركائز إيجابية ومقامات إيمانية بهية ألا وهي : المبادرة والمراقبة والترجية [أنظر تفسير الثعالبي 124/3] فمقام المبادرة يستشف من كون الآية الكريمة فيها تحضيض على الاستباق إلى خير الأعمال ، والمسارعة فيها والاستعجال، فلا تلكؤ إذا ولا تثاقل في مناصرة هذا الخيار الذي فيه حياتهم ؛ خيار الانقياد للإسلام والذود عن حماه ، والدفاع عن قضاياه بالنفيس والرخيص ،ذلك أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه إما بالموت والقبض فيكون هذا متناغما مع قوله تعالى في تتمة الآية **(وأنه اليه تحشرون)** أو يحول بين المرء وقلبه بتغيير مقاصده وبت نواياه فيكون هذا متمشيا مع قوله تعالى**(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم)** [سورة الصف 5]

كما يتجلى في الآية مقام المراقبة؛ إذ تم إعلامهم أن قدرة الله تعالى وعلمه واحاطته حائلة بين المرء وقلبه ،وذلك فيه حض على المراقبة والخوف من الله المطلع على الضمائر ، فحذار أن تنطوي النفس على تنكب لهذا الخيار ، وتتنكر لهذا الدرب والمسار ، فسوف تقرع ساحتها النواميس والأقدار ، فتضحي عرضة لتقلب القلوب والأبصار ، فهذه سنة ربانية مفهومة ومن قديم الزمان معلومة؛ قال تعالى : **(ونقلبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون)** [سورة الأنعام 110]

وثم مقام الترجية ؛ إذ يستشف من الآية الكريمة أن الله تعالى قادر على أن يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة عدد عدوهم وعدده فيجعله جراءة وقوة ، وبضد ذلك للكفار ؛ ذلك أن الله تعالى مقلب القلوب وفي ذلك يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : (إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : (اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك) [صحيح مسلم رقم 2654] لذا كان أكثر دعائه – عليه الصلاة والسلام –:(يامقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) [سنن الترمذي رقم3522]وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – قال : (كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم لا ومقلب القلوب) [صحيح البخاري رقم6243]

في ضوء ذلك يكون في السنة الربانية الدائرة في فلك الاستجابة لله والرسول نصيب ، لكل عبد منيب ، أو معتد مريب ؛ ذلك أن المرء إما أن يكون مستجيبا لله ولرسوله فعليه أن يستمسك بما هو عليه ويستعصم لكيلا يأفل نجمه عن ميدان الاستجابة والاستقامة ويغيب ، واما معرضا عن الاستجابة لله ولرسوله فيلزمه التعجيل بمراجعة نفسه ومحاسبتها من قبل أن يضل سعيه ويخيب ..

هذا وسيظل النداء القرآني يصدع بالدعوة إلى الاستجابة لله وللرسول وبها ينصح قال تعالى : **(يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)** [سورة الأحقاف 31] في حين يقرع

المناوئين لها الغافلين عنها ويفضح **(ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجزٍ في الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين)** [سورة الأحقاف 32] .

بين فتح مـ ة وبشريات فتح القدس

الحديث عن القدس ، يبعث في النفوس الأمل والأنس ، كيف لا وقد احتضنت القدس المسجد الأقصى ؛ أولى القبلتين ، وثاني المسجدين ، مسرى نبينا محمد r ومعراجه المفضي لأطباق السماء ، وبها صلى بكل الأنبياء …

ومن يومها والصراع على بيت المقدس محتدم بين أهل التوحيد وأرباب الشرك العنيد ، وما من مرة يغتصب فيها الشرك بيت المقدس ويدنّس ، فليس سوى المسلم الموحّد بمنقذ له ومخلّص ، حتى بات مستقراً في الأذهان ؛ أذهان أولي الألباب، أن المجاهد على ثرى بيت المقدس لا يرضى من الغنيمة بالإياب ، إنما يظل يرنو إلى ما أعده الله تعالى من حسن المآب، لكل من خضد شوكة الشرك وفتح لعزّ أمته وتمكينها أرحب باب ..

أما وقد طالعتنا الإدارة الأمريكية بقرارها الغاشم القاضي بشرعية اغتصاب يهود للقدس وحيازتهم إياها وتدنيسهم لها، بات لزاماً علينا أن نعرّج للحديث عما قضته الإرادة الربانية : من أن القدس أرض إسلامية ، وميراث شرعيّ لجموع المسلمين على مرّ السنين ، وأن حالها وحال أهلها المجاهدين لاستردادها ، المرابطين في أكنافها ، لا يخرج عن حال الجماعة المسلمة في ظل الظروف التي كانوا يرتقبون فيها فتح مكة وتحريرها من دنس الشرك والطغيان ، تلكم الظروف التي تنزلت فيها على النبي rوصحبه الكرام الآيات البينات في سورة الفتح **(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيما ، وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديرا)** [سورة الفتح 20، 21] فقوله تعالى : **(فعجل لكم)** أي[فتح خيبر] قاله ابن عباس ومجاهد (تفسير الطبري 89/26) **(وكف أيدي الناس عنكم)** تتناول الآية جميع من هم بالنيل من الجماعة المؤمنة سواء أكانت قريش حين رامت قتال المسلمين ، أم يهود حين هموا باغتيال من بالمدينة بعد خروج الرسول r وصحبه منها ، أم أهل خيبر وحلفاءهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان [انظر ابن القيم زاد المعاد 218/2] .

وكان من مغازي هذا الفتح والكف **(ولتكون آية للمؤمنين)** قال الشوكاني ـ رحمه الله تعالى ـ [سنة لمن بعدكم] [فتح القدير 65/6] سنة تحمل في ثناياها عظة وعبرة ؛ ومن شأنها أن تولد في نفوس الأجيال المتعاقبة المدافعة عن حقوق الأمة وحرماتها ومقدساتها ثمرات عديدة ؛ منها :

ثمرات فكرية ؛ (فيعلموا أن الله تعالى هو المتولي حياطتهم وكلاءتهم في مشهدهم ومغيبهم) [تفسير الطبري 90/26] ترجمة واضحة لقوله تعالى **(إن الله يدافع عن الذين آمنوا أن الله لا يحب كل خوان كفور)** [سورة الحج آية 38] ومصداقاً لقوله r : (تكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو علي ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمة) [متفق عليه] .

وثمرة نفسية : تشحذ عزائمهم وتلهب نفوسهم فيوقنوا أن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم وعُددهم فتقر بذا عيونهم وتطمئن قلوبهم وليعلموا بصنيع الله هذا بهم أنه العليم بعواقب الأمور وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين وإن كرهوه في الظاهر ، وعليه فما عليهم إلا أن يعضوا بالنواجذ على الخيار الذي ارتضاه الله لهم ، فتنشرح له صدورهم **(كُتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)** [سورة البقرة آية 216] (انظر تفسير ابن كثير 341/7) .

وثمرة حركية : تمتد إلى من جاء بعدهم فتابع دربهم واقتفى أثرهم وانحاز لخيارهم بعزيمة لا تلين، نابعة من ثقة بالله ويقين ،لذا قال الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ (وليجعلها لمن بعدكم آية تدلهم على أن ما وعدهم الله تعالى يصل إليهم كما وصل إليكم) [تفسير الرازي 97/14]

قوله تعالى **(ويهديكم صراطاً مستقيما)** أي : (ويسددكم أيها المؤمنون طريقاً واضحاً لا اعوجاج فيه) [تفسير الطبري 19/26] .

أمّا كنه هذا الطريق وحقيقته ــ في ظل تلك الظروف ــ فهو : (التوكل عليه والتفويض إليه والاعتزاز بــه) [تفسير الرازي 4/ 97]وأنعم به من طريق من هُديه هُدي إلى خير كثير **(ومن يتوكل على الله فهــو حسـبه)** [سورة الطلاق آية 3] أي : (كافيه) [تفسير الطبري 139/28]

ونحن معشر المسلمين أضحينا نرى رأي العين كيف أن المولى جل شأنه يعجل لإخواننا المرابطين في بيـت المقدس وأكنافه بفتوحات خيّرة تحمل في طياتها عبراً نيرة ، فتكون آية للمؤمنين المرابطين المدافعين عن حـوزة الأمة وحياضها وحرماتها ومقدساتها ، وتكون سنة للذين يجيئون من بعدهم فيقتفون آثارهم وينحــازون لخيـارهم وتكون في الوقت نفسه مبعث أرق ومصدر قلق للغاصبين المعتدين ، فحياطة الله تعالى للمرابطين المدافعين عـن حقوق الأمة وكلاءته إياهم باتت واضحة للعيان، شاخصة لا تحتاج لبرهان ، فكم من مرة يأخذ الله تعالى عـنهم العيون والأبصار ! وكم من مرة يكف عنهم أيدي الظالمين الأشرار ، فيحقن بذا دماءهم ويبلغهم مأمنهم ، ويـرد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ..

فكل هذا مع قلة العدد والعُدّة من شأنه أن يهدي إخواننا المرابطين على ثرى بيت المقدس صــراطاً مسـتقيماً قوامه : التوكل على الله ، والثقة به ، واللجوء إليه ، والاستنصار به في وقت عزّ فيه النصـير ، وانعـدم فيـه المجير.

أما قوله تعالى **(وأخرى لم تقدروا عليها)** فقد قال الحسن وقتادة (هي مكة) [تفسير الطبري 26/ 92] ومعنـى **(فلما أحاط الله بها)** أي : حبسها لكم ــ لا عنكم ــ وعليه (فإن لم تقدروا عليها في الحال ، فهي محبوسة عليكم لا تفوتكم) [تفسير القرطبي 184/16] إذاً هي موقوفة على المؤمنين محفوظة لهم ، لـذا قــال الــرازي : (حفظها للمسلمين)[تفسير الرازي 98/14] ،(وفي معنى الإحاطة إيماء إلى أنها كالشيء المحاط به من جميـع جوانبه فلا يفوتهم مكانه ، فجعلت كالمخبوء لهم)[تفسير ابن عاشور 180/26]

من أجل ذلك قصم الله تعالى ظهر أبرهة وجنده لما أرادوا مكة بسوء ، وهموا أن يبسـطوا عليهـا هيمنـتهم ونفوذهم ، فلم يتأت لهم ذلك لأنها محفوظة لقوم آخرين ، فقد أحـاط بهـا رب العـالمين ، لمحمـد r وصـحبه المجاهدين .

إذا كان ذلك كذلك فإن آلية نيل هذا الوقف وحيازته وامتلاكه بينها الفراء بقوله: (أحاط الله بها لكم حتى تفتحوها وتأخذوها) [تفسير الشوكاني 93/5] إنه الفتح وما يتطلبه من إعداد وعُدّة وجدٍ واجتهاد وكدٍّ وتشمير وتضحيات في خضم المسير .

وإنما حبس الله تعالى مكة ولم يعجلها لهم كفتح خيبر ذلك أن مكة خير البلدان عند الله تعالى وقد حرمها الله يوم خلق السموات والأرض وفيها أول بيت وضع للناس ، فامتلاكها يتطلب مهراً كبيراً؛ من طاعات مزيدة ، واستنفار طاقات مديدة ، واستيفاء ضرائب عديدة؛من الأنفس والأموال والدماء والجراح والأرواح ، على طريق بلوغ هـذا المرام ، فلما وفى النبي r وصحبه باستحقاقات هذا النصر ومتطلبات هذا التحرير أوتوه فأثـابهم الله فـتح مكـة ووهبهم إياه ، فقد دخلها الجيش الإسلامي فاتحاً بقيادة النبي r في السنة العاشرة من الهجرة وفي هذا يقول المولى جلّ شأنه **(إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا)** [سورة النصر]

وقدس الأقداس كذلك ؛ يجري عليها ما جرى على مكة من قبل فلشأنها العظيم حبسها الله تعالى للمـؤمنين ولـم يحبسها عنهم ، وانه وان كانت مكة لم يقو أحد حتى من الكيانات الكبرى آنذاك من أن يخضعها لهيمنته وسيطرته – كونها موقوفة للأجيال المؤمنة- بخلاف بيت المقدس الذي تداعى عليه الرومان والتتر والصليبيون والإنجليـز وفي الوقت الراهن يهود ،فهذا كله ليس بمدعاة للالتباس ، ولا شذوذا عن الخاصية المشتركة بينه وبين مكـة ولا انتقاص ، إنما ثم فارق لطيف بين مكة والقدس مفاده : أنه يقتص من الظلمة بمجرد أن يريدوا مكة بسوء ويهموا به (ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) [سورة الحج 25] فــ (يعاقب البادي فيه الشر ، إذا كان عازما عليه ، وان لم يوقعه) [تفسير ابن كثير 411/5] في حين قد يستدرج الظلمة إلى بيت المقـدس لحظوتـه بخصيصة ومزية معهودة ، غدت عبر الزمان سنة تاريخية مشهودة ؛ ألا وهي أنه (لا يعمر فيه ظــالم) فمـن استشرى ظلمه وامتد حتى طال دنسه بيت المقدس كان ذلك سبب اندحاره ، وجريرة انخذاله وانهزامه ،وهذا مـا كان بشأن الغزاة الطامعين ببيت المقدس، إذ خرجوا منه أذلة صاغرين يجرون أذيال الهزيمـة ، ويهـود علـى الأثر، فلن يطيب لها الحال والمستقر ، قال تعالى **(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كمـا دخلوه أول مرة وليتبروا ما علو تتبيرا)** [سورة الإسراء 7] فإلى أن يأتي هذا اليوم الذي يحررها فيه المؤمنـون لن يمكن فيها لعدوٍ غاشم أو معتد دخيل ناقم ، إنما ستظل كشأنها على مدار التاريخ لا يعمر على ثراها ظــالم ، وفي بطحائها وبين جنباتها يقتص من كل مجرمٍ آثم .

من هنا درج النبي r على نسبة ملكية بيت المقدس وأكنافه إلى المسلمين في وقت لم تكن فيه بحوزتهم، فها هو يدعو المولى عز وجل بقوله:(اللهم بارك لنا في شامنا) [صحيح البخاري رقمه 990] وهي وقتئذ بأيدي الرومان

وما ذاك إلا لأن النبي r كان على بينة من أمر بيت المقدس وأن المقادير الإلهية والإرادة الربانية قضت بأن يكون بيت المقدس :

مأرز إيمان عند الفتن والافتتان : فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضي الله عنهما ــ قال : قال رسول الله r :(إني رأيت عمود الكتاب انتزع من تحت وسادتي فأتبعته بصري فإذا هو نور ساطع عمد به إلى الشام ، ألا وإن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام)[مستدرك الحاكم 6802 وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه]

وبيت المقدس محط اجتباء ومستقر أهل الاصطفاء ؛ فعن أبي أمامة –رضي الله عنه – قال: قال رسول الله r(الشام صفوة الله من بلاده ، إليها يجتبي صفوته من عباده) [الحاكم في المستدرك برقم 8602،والهيثمي في المجمع59/10 وصححه الألباني في السلسلة الصحيحةبرقم1909] وعن ابن حوالة –رضي الله عنه – قال : قال لي رسول الله r : (أتدري ما يقول الله تعالى في الشام ؟إن الله تعالى يقول : يا شام أنت صفوتي من بلادي أدخل فيك خيرتي من عبادي) [رواه الإمام أحمد في المسند 4/ و100،110 أبو داود في سننه برقم 2383 والحاكم في المستدرك وصححه510/4]

ــ وبيت المقدس موضع كلاءة وعناية : ففي حديث ابن حوالة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي r قال : (فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله) [مسند الإمام أحمد 4/ 100،110 ــ والحاكم في المستدرك برقم 86030 وصححه ــ والهيثمي في المجمع 59/10 وقاله رجال ثقات]

قال العز بن عبد السلام – رحمه الله تعالى – :(وإخبار النبي r أن الشام في كفالة الله تعالى ، وأن ساكنه في كفالته ، وكفالته : حفظه وحمايته ، ومن حاطه الله تعالى حفظه فلا ضيعة عليه) [ترغيب أهل الإسلام 28] من هنا فلن يضيع الله تعالى المرابطين في بيت المقدس وأكنافه وان ادلهمت عليهم الخطوب ، ونزلت في ساحتهم الكروب ،فسينجيهم منها علام الغيوب .

وبيت المقدس ملاذ الطائفة المنصورة ؛ فعن أبي أمامة الباهلي _ رضي الله عنه _ قال : (قال رسول الله: (لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين ، لعدوهم قاهرين ، لا يضرهم من خالفهم ، إلا ما أصابهم من لأواء حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك ، قالوا : فأين هم يا رسول الله ؟ قال : ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس) [رواه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند 169/5 ، والهيثمي في المجمع 288/7 وقال : صحيح بشواهده] .

وبيت المقدس وأكنافه موطن الملحمة الجهادية :التي يطيح بها أخيار البرية بشر البرية ، وفي هذا يقول الرسول r : (لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبىء اليهودي من وراء الشجر والحجر فيقول الشجر والحجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي تعال فاقتله إلا الغرقد فانه من شجر اليهود) [رواه مسلم] .

وفي أكنافه تقطع دابر فتنة المسيح الدجال، إذ يلقى الدجال هلكته على يد نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام كما جاء في الأثر عن النبي r أنه قال : (يقتله ابن مريم بباب لد) [أخرجه أحمد في المسند 420/3 والترمذي في سننه برقم2244 والحديث صحيح لغيره]

وبيت المقدس محضن الخلافة الإسلامية في آخر الزمان ؛ فها هو الرسول r يقول لابن حوالة – رضي الله عنه – : (يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت أرض المقدس فالساعة يومئذ أقرب من يدي هذه على رأسك) [مسند الإمام أحمد 288/5 وصححه الألباني في صحيح الجامع 7838] .

وبيت المقدس أرض المحشر والمنشر ؛ ففي حديث ميمونة بنت سعد – مولاة النبي r – قالت : يا رسول الله ! أفتنا في بيت المقدس ! قال : (أرض المحشر والمنشر) [رواه أحمد في مسنده 463/6 وابن ماجة في سننه 1407 والطبراني في الكبير 52/ 32] .

فهذا ما وعدنا الله تعالى ورسوله r بشأن بيت المقدس ، وصدق الله ورسوله ، فما وعدنا الله ورسوله سيصلنا –معشر المسلمين – لا محالة ، وزمان وصوله ووقته مرهون بتسديد استحقاقات هذا الشرف العظيم ؛ فستظل القدس محبوسة لنا ، محصورة لنا ، موقوفة علينا ، لا يمكن فيها لظالم ولا يهنأ فيها غاصب ، حتى نفي باستحقاقات نيل هذا الشرف العظيم ،شرف تحريرها وامتلاكها وإرجاعها إلى حوزة المسلمين ، وضمها إلى ارثهم الإسلامي التليد ، سواء أكانت هذه الاستحقاقات :

استحقاقات ايمانية : بالاستمساك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه r والاعتصام بهما ، وبتحقيق الولاء والبراء وتمحيصهما

واستحقاقات دعوية : ببذل جهدنا واستفراغ طاقتنا لإخراج جيل رباني قرآني ، يواصل المسير ، ويحمل راية التحرير.

واستحقاقات نفسية و بدنية : بالصبر على لأواء المرحلة ؛ مرحلة صيانة حقوق الأمة وحفظها وعدم التفريط بشيء منها ، مهما كانت ضغوطات الواقع ثقيلة، ومهما نالت من دمائنا وابتلعت من فلذات أكبادنا .

واستحقاقات مالية : ببذل ما في الوسع والجود بالنفيس والرخيص نصرة لبيت المقدس وقضاياه ، وتثبيتا لأهله المرابطين في حماه ، وكفالة لأسرة الشهيد الذي جاد بدماه ، وخلافته في أهله بخير .

واستحقاقات جهادية : برفع راية الجهاد والاستشهاد ، والالتفاف حولها ، وانتهاجها سبيلا وحيدا ، وملاذا سديدا لتحرير البلاد وإعزاز العباد .

وبعد : فهذا ما شاءته الأقدار الربانية بقدس الإسلام ، فأنى للإدارة الأمريكية أن تناوىء هذه الإرادة وتقدم بين يديها ، فتقضي بمنحها لشر الأنام – وليست هذه هي المرة الأولى في تاريخ القدس التي يمنح فيها من لا يملك من لا يستحق – فمن كان يظن أنه سيستدرك على المولى جل شأنه في أقداره ، أو يعقب عليه في أحكامه ، ألبسه الله تعالى ثوب النقيصة والخذلان في عقر داره ، وسيفعل به كما فعل بأشياعه من قبل **(إنهم كانوا في شك مريب)**[سورة سبأ 54]، **(والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون)** [سورة يوسف21].

تبصرة الأنام بمقام أمة الإسلام

لا يخفى على ذوي اللب والأفهام، أين ينبغي أن يكون موقع أمة الإسلام ، ومقامها بين الأنام ، تلكم الأمة التي شرفنا بالانتساب إليها حين اجتبانا الله تعالى لحمل رسالتها ابتداء من بين سائر الأمم ،فأنزلنا منزلا وبوأنا مقاما أفصح عنه قول ربنا الأعز الأكرم **(كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)** [آل عمران110] .

فقد جل شأنه أمة محمد r وسام شرف عندما بين أنها خير أمة أخرجت للناس ، ومن تمام نعمته عليها أن جعل باب الخيرية مفتوحا يلجه كل من استفتح بمفتاحه، مؤديا شروط ولوجه التي بينها المولى في كتابه **(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)**.

فالحكام ورعاياهم إن استقام إيمانهم بالله مولاهم ، وعلى طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سارت خطاهم ، غدو امتدادا لذلك الجيل ، وورثة ذاك الرعيل من أصحاب محمد r الذين رفع المولى في العالمين ذكرهم ، وخلد في الضمائر ذكراهم.

ومن تأمل قوله تعالى **(أخرجت)**أيقن أن مخرجها هو الله تعالى، وقد حذف لفظ الجلالة للعلم به ؛ إذ ما من أحد يماري أن إرادة الله وحدها هي التي جعلت من عبّاد الحجر زعماء للبشر، ومن عبيد الصنم رواد للأمم ، ومن القبائل المتخاصمة المتناحرة أمة واحدة متماسكة ذات حضارة سادت العالم حتى غدت في سمائه قمرا منيرا، ورفرفت راياتها بعد ذلك في ربوعه قرونا كثيرة ، فأنيط بها مسئوليات عظيمة، واضطلعت بأمانات جسيمة ، ومهام قويمة ،كان جماعها في قوله تعالى **(أخرجت للناس)**.

فأمة الإسلام لم تخرج لتعكف على ذاتها ، وتنطوي على نفسها، وتعيش لأنانيتها، إنما هي **(أخرجت للناس)** لتقودهم وتسوسهم وتهديهم لما فيه رشدهم وصلاح أمر دينهم ودنياهم، وإذا كان ذلك كذلك فينبغي أن تتبوأ هذه الأمة مقعد القيادة للبشرية، فتمسك بزمام الريادة وتكون لها السيادة (وهذا ما ينبغي أن تدركه الأمة الإسلامية لتعرف حقيقتها وقيمتها ، وتعرف أنها أخرجت لتكون في الطليعة ، ولتكون لها القيادة بما أنها هي خير أمة ، والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض ، ومن ثم لا ينبغي أن تتلقى من غيرها من أمم الجاهلية ، إنما ينبغي دائما أن تعطي هذه الأمم ما لديها ، وأن يكون لديها دائما ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح والتصور الصحيح والنظام الصحيح والخلق الصحيح والمعرفة الصحيحة والعلم الصحيح) [الظلال 130/1] تعطيهم ذلك بلسان حالها ومقالها على السواء .

فهذه المنزلة التي أنزلها الله إياها قد أحدثت لها في العالمين ذكرا **(وإنه لذكرى لك ولقومك)** [الزخرف 44]، ولهذا الذكر تبعات **(وسوف تُسألون)** ستسأل الأمة التي أخرجت للناس عما قدمته لهم من رشد في سياساتها، وعدالة في أنظمتها، ونزاهة في قضائها،وصفاء في ولائها ، وصدق في قيلها ، ومصداقية في شعاراتها ، ورصانة في قيمها، وتجرد في عواطفها ، وسداد مواقفها إن في حالة سلمها أو حربها ، وجدية دفاعها عن حياضها ومقدساتها وحقنها لدماء أبناء ملتها ، وحسن صنيعها فيما ملكته أيديها من ثروات وخيرات ، وما

استخلفت عليه من رعايا، واستؤمنت عليه من قضايا.. وغيره مما يعكس أصالة شرعتها ونصوع مبادئها وأحقيتها بأن تسود وتقود ، ليرى العالم ذلك منها رأي العين ، ويلتفت إلى ما أورد هذه الأمة موارد الأمان والأمن، فتكون لهم آية وعنوان هداية ،ولكيلا تكون في الوقت نفسه فتنة للناس ومحط غواية، إن هي حادت عن منهاج ربها ، وغفلت عن قيادتها وريادتها ، وعطلت تبليغ رسالتها، فحرمت بذا جموع البشرية مما حوته هذه الرسالة من خير ،وانعقد في نواصيها من بر، وقد وعظنا كتاب الله تعالى أن نكون فتنة للغير بتميع قيمنا وتأرجح مشاعرنا واضطراب أمورنا ، وفساد أحوالنا، فيظهر بذا عدونا علينا وتكون الغلبة له فيظن حينها أنه على حق وأننا على باطل ، فيزداد فتنة على فتنة ، وفي هذا جاء قوله تعالى **(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا)** [الممتحنة 4] .

ولتعلم أمة القيادة أنها ستقدم بين يدي الله تعالى على البشرية شهادة ؛ هل قبلت البشرية منها ما جاءت به من هدى؟ أم أنها نكبت عنه وأبت إلا أن تنزلق في مهاوي الضلالات والردى ؟ هذا ما قرره المولى جل شأنه في كتابه **(هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس)** [الحج 78]، وأكده المصطفى r بقوله لجموع أمته : (أنتم شهداء الله في الأرض،أنتم شهداء الله ، في الأرض أنتم شهداء الله في الأرض) [متفق عليه] .

وإذا كانت أمة القيادة أمة ذات شهادة ، فإن الشهادة تقتضي العدالة لئلا تكون شهادة زور على البشرية ، وقد شهد الباري جل شأنه لجموع من أمة محمد r بالعدالة لما تصدروا لحمل الأمانة والنهوض بمسئوليتها الضخمة فقال**(وكذلك جعلناكم أمةً وسطا)** [البقرة 143] أي)ثقات عدولا أخيارا) [فتح القدير للشوكاني 15/1] مبينا العلة **(لتكونوا شهداء على النــاس)** فأمة الإسلام هي (الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعا ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدي فيهم رأيها فيكون هو الرأي المعتمد ، وتزن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم ، فتفصل في أمرها وتقول : هذا حق منها وهذا باطل ، لا التي تتلقى من الناس تصوراتها وقيمها وموازينها وهي شهيدة على الناس ، وفي مقام الحكم العدل بينهم) [الظلال 130/1] .

وعدالة أمة الإسلام ماضية ما أحيا فيها حكامها وولاة أمورها علوم شرعتها التي هي أمارة عدالتها ،ومنبع تزكيتها ، ومكمن نهضتها، ومبعث عزتها ، وطريق صون وحدتها وجمع كلمتها ، ومجلبة رفعتها وسؤددها ، وضامن لديمومة مجدها ، وفي هذا يقول المصطفى r: (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه مغالاة الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين) [مشكاة المصابيح 82/1] فما دام فئام من الناس يحملون هذا العلم الشرعي، ليشيعوه في الورى على بصيرة ووعي ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وما دام ولاة الأمور يسوسون رعاياهم به دونما شطط ولا بغي، محدثين بذا للمؤمنين مذكّراً ، وللباغين مزدجراً، فسيطيب لهم الحال والمستقر، وسيظل يقتفى لهم في العالمين أثر ، في حين من ناوأهم واجترأ عليهم وهم على حالهم هذه ، ففلوله حتما ستندحر ، وكيانه يقينا – بعون الله تعالى – سيندثر .. تلكم بشائر في كتاب ربنا ونذر .